أنت كما تراك

فضفضة قصصية مثيرة

محمد الغتوري

اسم الكتاب: أنت كما تراك
التأليف: محمد الغتوري
موضوع الكتاب: مجموعة قصصية
عدد الصفحات: 80
عدد الملازم: 5 ملازم
مقاس الكتاب: 20 x 14
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع:
الترقيم الدولي:

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

darelbasheerealla@gmail.com
darelbasheer@hotmail.com
www.darelbasheer.com
01012355714 - 01152806533

١٤٣٩هـ
٢٠١٧م

إهداء (١)

إلى الإنسان الوحيد الذي استحق أن أجالسه ويجالسني دون ملل مهما طال الوقت، ويلازمني وألازمهً أينما كنتُ وأينما حللت،

إلى هذا الكائن الذي قمت على تربيته بنفسي وبكامل حريتي، ولِمَ لا؟ وسوف يجالسني أيضًا في وحَدتي وغربتي ووحشتي بطريقي إلى دار المُقام، كما هو لا يفارقني الآن....

فهل حينها سيحسنُ إليَّ كما كنت حريصًا على الإحسان إليه!؟

أم هناك حساباتٌ أخرى!؟

إهداء (٢)

إلى المرأة التي نثرت كل بذور شخصيتي الأولى على أرض فطرتي الخصبة: جنينًا ووليدًا ثم طفلًا وصبيًّا.

الأم الحنون التي هي أحق الناس بحسن صحابتي الأولى

والثانية والثالثة، الحبيبة التي تحوي الجنة تحت قدميها

المقدستين .

إهداء (٢)

إلى زوجتي الحبيبة التي تفتحت براعم صبايا وشبابي بنورها ودفء شمسها واكتمال قمرها..

إلى الزهور الجميلة التي تفتحت بجوارنا وملأت حياتنا عبيرًا وتعبيرًا، بناتي الحبيبات الغاليات

(مريم- منة- رغد- ريهام)

مقدمة..

أنت كما تراك تمامًا وحتى المرآة كاذبة!

الإنسان يظل تائهًا يبحث عن نفسه طوال الطريق، ولا يهتدي أبدًا إلا بتجارب عديدة وخبرات متباينة حتى يصل أخيرًا إلى حقيقة كينونته العجيبة والمثيرة للدهشة، فأنت كما ترى نفسك وتظنها، إن رأيت نفسك قويًّا صميمًا متفائلًا مقبلًا على الحياة، متأكدًا لا محالة لوصولك إلى ما ترنو إليه نفسك من تحقيق لأهدافك وآمالك؛ ستكون كذلك وستصل بالفعل لما حلُمتَ به بشرط أن تكون أحلامك متناسبة مع إمكانياتك ويمكن تحقيقها، والعكس صحيح للشخص البليد المتكاسل المتشائم، فللعقل الباطن قوة وللإرادة سحرٌ.. وكذلك قضت المشيئة.. (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) صدق الله العظيم.

وكتقريب ملموس للمعنى المقصود: حين ننظر للمرآة نجدها دائمًا تكذب، فأحيانًا تُظهر الشكل قبيحًا أو غير مقبول ولكن الصورة الحقيقية التي تتقمصنا غير الشكل الظاهر، حتى ينكر الإنسان شكله بالمرآة ولا يصدق أبدًا أنه هذا الكائن! والعكس صحيح فأحيانًا تُظهر المرآة شكلًا صارخ الجمال إلا أن صاحبه يوقن القُبح داخله! لذلك نستطيع القول إن المرآة الحقيقية بداخلنا ولا تظهر أبدًا للآخرين.

هذه المجموعة القصصية تحمل بطياتها كل هذه المعاني من خلال مواقف حقيقية حدثت بالفعل من خلال حكايات عن سياراتي، وحكايات أخرى عن هندستي.

هذه المجموعة تثبت وتؤكد أن الإنسان كما يرى نفسه تمامًا، مهما كانت البدايات صعبة وفُرضت عليه فرضًا؛ فستكون النهايات غير ذلك إن صدق الإنسان نفسه أنه سيكون الأفضل، وسعى سعيه بإيمانٍ كامل ويقين بهذه الحقيقة .

محمد السيد الغتوري

-١-

الحُب الأول

أول سيارة لا يمكن أن تُنْسى مثل الحب الأول، كانت بيضاء كالغادة الحسناء بعيني (تويوتا كريسيدا موديل ٨٨).. اشتريتها في الطائف خلال فترة تعليمي قيادة السيارات منذ أكثر من عشر سنوات، كنت متعجلًا جدًّا، الأمر هنا يختلف تمامًا عن مصر فبمبلغ زهيد يمكنك امتلاك سيارة؛ لذلك لم أصبر حتى صدور رخصةً القيادة. من حقك أن تعجب! كيف أشتري سيارة بدون رخصةٍ للقيادة؟ يمكنك أن تعتبر ذلك شجاعة وإقدامًا أو جنونًا، فقد رأيتني أستطيع فعل ذلك.

كنت أذهب بها لمدرسة تعليم القيادة! بالطبع كما هو متوقع كنت أتلقى بعض الشتائم الطبيعية للأخطاء الطبيعية لحديثي العهد بالسيارات.

اشتريتها باسم صديق لديه رخصة وهو أيضًا مُضَحِّي جدًّا ومحترم بلا حدود.. صممت أن أحصل على رخصة القيادة بدون واسطة أو محسوبية! حتى اتضح لي أنه يمكنني أن ألج سمَّ الخياط ولا يمكنني الحصول على رخصة القيادة من الطائف! تم إعادة دورة التدريب مرات عديدة خلال أربعة أشهر كاملة، ولم يتم المُراد من رب العباد حتى أذعنت واعترفت أخيرًا بسحر الواسطة الذي مكنني من الحصول على الرخصة بدون أي اختباراتٍ من الأساس!..

كان طريق الطائف مكة (طريق السيل) بنهاية كل أسبوع متعتي ونزهتي.. وبيوم مُقَدَّر وبشجاعة الفرسان تخطيت سيارة لاند كروزر بطريقةٍ عادية من اليسار مسموحٌ بها، ولكن صاحب السيارة الفخمة لم يحتمل أن تمر مثل هذه السيارة الصغيرة، وبلغته هو الحقيرة! وتسبق سيارته الفخمة التي تسابقُ الريح.. تخطاني الرجل من اليمين بلمح البصر وأتى أمامي وضغط الفرامل فجأة! وقفت سيارته بعد عشرين مترًا على الأكثر من الضغط على الفرامل.. بالطبع كان الأمر بالنسبة لي صادمًا وغير متوقع الحدوث، شعرت وكأن جسدي كله يتحول إلى فرامل.. فرامل القدم واليد وفرامل الجسد التشنجية للخلف بطريقة لا إرادية كل هذا لم يستطع إيقاف السيارة بأمان؛ لأنها خفيفة. وحدث المتوقع وتهشمت السيارة تمامًا من الأمام.

نزلت بسرعة؛ فالطريق سريع وتنحيت جانبًا متوقعًا كارثة كبرى لكل من سيأتي مسرعًا، فالطريق به انحناءات شديدة الخطورة وبالفعل ما هي إلا لحظات وتهشمت السيارة تمامًا أيضًا من الخلف ولله الحمد.. حفظني الله كل ما حدث للسيارة لاند كروزر هو الإطاحة بالإطار الذي يتم تركيبه بخلفية السيارة (الاحتياطي).

نزل صاحب السيارة الكبيرة الفخمة بكل هدوءٍ ووداعة! وقام بتركيب الإطار مكانه وقال:

– لو إن عِندي «وجت»، كنت طلبت لك الشرطة ذا الحين أبغي منك تعويض، إنت صدمتني من الخلف. تعرف الجانون واللا ما تعرف!؟

-٢-

الدَّبابة

سيارتي الأولى كلفتني اثني عشر ألف ريال ونصف الألف تُرى كم تساوي الآن!؟ بعد أن أصبحت جثة هامدة! قطعة حديدية منزوعة الروح.

اتصل أحدهم بصديقه فأرسل حاملة سيارات تحملها إلى مكان يسمى (التشليح)!.. نعم هكذا يُسَمُّون المكان «تشليح»! ويعني الاستفادة من القطع المهمة بالسيارة وبيعها لأصحاب سيارات الحوادث البسيطة.

تم بيع سيارتي الأولى على حالتها بعد كَرٍّ وفَرّ! ومفاصلة عقيمة- لم أحبها يومًا- بسعر ألفين وخمسمائة ريال وقمت بتسليم رخصة سير السيارة على أن تكون باقي الإجراءات للمُعَقِّب، ونسيت الأمر كاملاً ولكن هذه السيارة لم تنسني وقامت بعمل جُرح غائر بشريط خبرتي بالحياة! سأقص لكم بعد قليل ماذا فعلت؟ اللذيذ بهذه السيارة المرحومة (من الخدمة) أن حروف لوحتها المعدنية كانت (ب ع ل) وبجوارها كلمة السعودية.. بالطبع توجد أحرف حين تجتمع تُكَوِّن كلمات عجيبة يمكنك أن تتخيلها عزيزي القارئ/ عزيزتي القارئة! قررتُ بعد التخلص من حُطامها شراء سيارة (حدادي)! تُرهب قلب كل من يمر بجوارها ويعمل لها الجميع ألف حساب على الطريق، هكذا رأيت نفسي يمكنني فعل ذلك، رغم أن هذه السيارة

لا يستعملها مصري مقيم بالمملكة، الجميع يفضلون السيارات الموفرة للوقود، لكن الكروزر وما فعلته بالمسكينة السابقة أصابني بالقهر.. فكانت السيارة أمريكية الصنع (كابريس ٨٩)، وبالفعل حققت ما كنت أصبو إليه من تملك لسيارة قوية وكبيرة الحجم، ربما يكون لها هيبة وسط الكبار.

لم تدم الفرحة بها كثيرًا! وكأن المثل القائل: (المنحوس منحوس ولو علقوا في (.....) فانوس) كان يتلمظ باستمرار لمطاردتي، فبعد شهر واحد اختفت السيارة من أمام المنزل بالطائف بشكلٍ عجيب! غير مسبوق.. فحوادث السرقة بالمملكة تكاد تكون منعدمةً بسبب إقامة حد السرقة المعمول به.

لم أصدق عيني حين لم أجد السيارة بمكانها، اتهمت ذاكرتي بالخيانة، فربما قمت بوضعها بجراج آخر، فقضت ليلتها بعيدًا عن البيت، ولكن أسعفتني الذاكرة أنها باتت بيتة شرعية، تحت البيت.

هرولت إلى سوبر ماركت بالجوار، سألت البائع:

- هو فيه سرقة هنا!؟

رمقني الرجل بنظرة تعجب من السؤال أساسًا، فلا توجد سرقات أبدًا تقريبًا، ثم قال: - إيه اللي اتسرق منك؟

- سيارة كابريس زرقاء لوحتها تحمل أحرف (و ت د).

ضحك الرجل المصري بشدة قائلًا:

- وكمان وتد!؟

ثم نصحني بعمل محضر كي لا يتم عمل مصيبة بالسيارة وأحمل أنا كل التبعات. بعد أسبوعين تم الاتصال بي..

- تعال استلم سيارتك حصَّلناها في مكة!

حين سؤال الضابط عن السارق قال:

- يا شيخ ها دول بذورة يلعبون!

حين وصلت إليها وجدتها تُعاني الغربة كانت جوعانة (بنزين) متهالكة، باركة على إطاراتها الأربع كجمل في مَناخه! كلفتني هذه السيارة خمسة عشر ألف ريال طوال مدة خدمتها التي لم تزد عن ستة أشهر، لكن حقيقة كنت أقطع بها مسافات كبيرة جدًّا، بعدها اختلط الزيت بالماء بالماكينة ولفظت أنفاسها الأخيرة.

كان أمامي خياران، شراء ماكينة بخمسة آلاف ريال أو بيع السيارة بألف ريال! وللأسف كان الاختيار الثاني نصيحة الجميع.

كرهت من يومها كل قديم مستعمل وخاصة بالسيارات، بعتها ونسيت أمرها.. بعد انتهاء رحلة الطائف التي استمرت أربعة أعوام وحين استخراج تأشيرة الخروج النهائي.. لم تخرج التأشيرة بسبب وجود سيارة على ذمتي! وقفت على يد مشتري الكابريس الزرقاء حتى نقل السيارة باسمه وحزمت حقائبي وحجزت تذاكر الطيران لي وللأسرة.. وذهبت لاستلام تأشيرة الخروج النهائي من

المعقب بطريقي للمطار وكلي ثقة بانتهاء المشكلة.. قال مرتاح النفس والضمير:

- لم تخرج لكم تأشيرة خروج!

- يا اللـــــه..... ليه يا عم!؟

- فيه سيارة ما زالت باسمك على الكمبيوتر.

- أنا اتأكدت بنفسي إنى نقلت الكابريس على اسم المشتري.

- كابريس!؟ السيارة المسجلة عليك تويوتا كريسيدا تحمل أحرف (ب ع ل).

قلت بحنقٍ شديد وغيظ:

- بعل! ده ما حصلش بغل حتى!

-٣-

لف وارجع تاني

إنت متخيل لما تكون خلاص حزمت حقائبك وأمتعتك وبطريقك للمطار وفجأة.. لف وارجع تاني.... لف وارجع تاني (والسبب سيارة أصبحت خُردة، بعتها ونسيت قصتها كلها منذ أكثر من ثلاث سنوات.

- مفيش تأشيرة خروج غير لما السيارة اللي باسمك على الكمبيوتر تبيعها.

- تلاتة بالله العظيم بعتها وبخسارة في التشليح.

- السيارة لسه على اسمك وما دخليتش تشليح.

- والحل؟

- شوف انت بعتها لمين وخليه ينقلها على اسمه.

- ما أعرفش غير نمرة تليفونه. واتصلت عليه، على طول غير متاح.

- روح دبر حالك يا أخوي.

- أيوه يعنى أعمل إيه حضرتك؟

- دبر حالك يا أخوي .

يا اللــــه!! تروح فين يا عبد الرحيم تيجي منين يا عبد الرحيم..!!؟

الإقامة بفندق حتى يتم حل المشكلة، وما أدراك ما الفنادق ولو حتى ثلاث نجوم! الفنادق المحترمة تقوم بتغيير المراتب تمامًا بأخرى جديدة كل ستة أشهر.. ما دون الفنادق خمس نجوم نادرًا ألا تجد حشرات الفراش بها! مفيش داعي للإيضاح أكثر من ذلك......

طبعًا (اتشويت) أنا والعيال. رقم تليفون بائع السيارة الأولى للتشليح قمت بتسجيله بالاسم الأول فقط، فعلاقتي بالرجل علاقة موقف وستنتهي لم يكن أمامي سوى البحث عنه باسمه الأول فقط بكل معارض السيارات بالطائف! وبعد رحلة بحث شاقة تم الاستدلال على شخص يعرفه، ذهبت إليه وسألته عن الرجل وصفه لي، وكانت الأوصاف تنطبق عليه تمامًا؛ فحمدت الله وتنفست الصعداء لا مفر أبدًا من هذه (الورطة) إلا بحل المشكلة ورفع ملكيتي للسيارة من نظام الكمبيوتر الذي لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

- أيوه بس حسام في مصر دلوقتي أجازة.

- معاك رقمه في مصر؟

- أيوه... اتفضل.

- سلام عليكم، حسام موجود؟.. طبعًا مفيش مجال أسأل ده بيت حسام!

- لا والله بيكون موجود بالليل.

بعد التواصل مع حسام تذكرني وتذكر السيارة بصعوبة.

- أيوه، أيوه بس السيارة أنا بعتها لفلان.

- رقم جواله لو سمحت والله؟

ظل فلان هذا لا يرد على الجوال رغم وجود جرس أسبوعين كاملين! وكل يوم الحالة النفسية تسوء، ناهيك عن نزيف المصروفات والإقامة بدون وارد عليك ومن يقيم بالسعودية يفهم هذا الكلام جيدًا.

وأخيرًا رد المحروس فلان..

- ألو.

- والله يا شيخ فيه سيارة مواصفاتها كذا وكذا باعها لحضرتك واحد مصري اسمه حسام.

- أيوه، أيوه فاكرها.. نمر لوحتها (ب ع ل)

- أيوه يا سلام عليك.

- أيوه هاذي والله بعتها لتشليح الشيخ بَعْرَة.

- بعرة واللا ذبلة معاك رقم جواله؟

- لا والله، بس اسأل عليه في التشليح.

بعد انتظار جناب الشيخ المُعظم حتى يصل صباحًا لتشليحه الذي يعج بكل أشكال قطع غيار السيارات التي قضت نحبها.

أتي الرجل يبتسم في سعادة؛ لفرط شعوره بالأمان والراحة المادية، يفكر الآن في قهوة الصباح والفطور اللذيذ، لا يعلم بوجود عائلة كاملة مرهون سفرها إلى وطنها بسيارة محطمة لديه!.

- والله يا شيخ الأخ (فلان) باع لحضرتك سيارة كذا، كذا.

- الله يلعنه، وينه ها الكلب!؟ نصب عليّ في المصاري (النقود)، وفَل.!

- مش عارف والله، المهم دلوقتي أنا في ورطة، عاوز أسافر بتأشيرة خروج نهائية، ومش عارف أستخرج تأشيرة خروج بسبب (أم السيارة)؛ لأنها لسه على اسمي في الكمبيوتر.

- سيارتك هاذي اللي واقفة هونيك!؟

- أيوه، يا ما انت كريم يا رب.. عاوز أنقل ملكيتها من الكمبيوتر بقى، أعمل إيه؟

- خذ القطعة المعدنية هاذي عليها رقم الشاسيه... سلمها للمرور وادفع غرامة تأخير وهات الورقة أوقع لك عليها إنها عندي بالتشليح .

دفعت الغرامة ٩٠٠ ريال وتم تشليح السيارة وسافرت بحمد الله بعد ثلاثة أسابيع من اليوم المزمع السفر به، سبحان الله.. كل خطوة بميعاد وقدر .

-٤-

الأومليت

خلال ثورة يناير ٢٠١١ حتى إسقاط النظام؛ كان للمصريين وضع خاص بالخليج، شعورٌ عام بالفخر بأننا شعبٌ عريقٌ قادر على صنع المعجزات حقًّا، مع تأمين ونظرة إعجاب لم أرَ مثلها بالخليج من قبل! إضافة للتودد إلى كل مصري باعتباره بطلًا استطاع أن يقف بوجه الطاغية ويقول له بأعلى صوته غير مرتجفٍ ولا خائفٍ: (ارحل!).

لم يكن يعلم أحد وقتها أن قوة الحرافيش ليست هي القوة الحقيقية التي نفذت إسقاط النظام! بل القوة الحقيقية بهذه الملحمة هي القوة التي باركت إسقاط النظام وفتحت البوابات على مصاريعها جميعًا؛ كي يتحقق الهدف المنشود الذي لم تستطع أن تنفذه بشكلٍ مباشرٍ رغم قدرتها على ذلك وفضَّلت أن تُظهر الضربة من الحرافيش بعيدًا عنها! فالجبل المنهار كان أعظم ركائزها فهو القائد الأعلى للمنظومة، إلا أنه أراد الخروج عن قوانين اللعبة بتوريث السلطة!

لَبَّى الجميعُ النداء، نزل كثير من المصريين لإعادة بناء وتعمير الوطن، فتحت مشروعات عظمى بالبلاد في فترة وجيزة.

بعد ثورة يناير مباشرة، نزلتُ إلى مصر وقلت لمَ لا!؟ بلدنا أولى بنا ما دامت ستتحقق الحرية– العدالة الاجتماعية– لقَمة عيش كريمة.

وبدأت أرجع لعادتي القديمة جدًّا في البحث عن عمل بأهرام الجمعة، بنية الاستقرار بمصر وعدم السفر وفى هذه الأجواءً قابلني أحد المعارف، وهو شخص طيب ومحترم لكنه من النوع (اللزج) البارد، الذي لا يعلم ماذا يقول وأين؟.

كنت مترجلًا على طريق السيارات بالقرية، أمرٌ طبيعي كل الناس يفعلونه.

الرجل المعرفة:

- إيه ده يا باش مهندس؟ انت ماشي على رجليك؟ لسه ما عندكش عربية!؟

- والله بسافر الخارج ولسه مش ناوي أستقر في مصر، مفيش لزوم للعربية يعني دلوقتي .

هذا الرجل لم أتقابل معه ولم أحادثه منذ ما لا يقل عن خمسة وعشرين سنة، ويبدو أنه يعمل بالخليج وعنده سيارة هناك، فهمت ذلك من هيئته التي تغيرت! بعد هذه المقابلة السريعة الغريبة قلت لنفسي.. ولم لا!؟ أليست النية الاستقرار؟ فلم لا أشتري سيارة حتى أسافر بها القاهرة؛ لعمل المقابلات الخاصة بالعمل، وحين الحصول على عمل أسافر بها لعملي ولو كل يوم.

وبالفعل اتفقت مع معرض سيارات بالمحلة الكبرى على هذه السيارة الجميلة (نيسان ٢٠١١)، سيارة زيرو موديل السنة، كلفتني مئة ألف جنيه بالتأمين ورخصة سير السيارة وتم الاتفاق على استلام

السيارة يوم الأربعاء وسيتم تركيب النمر وإنهاء إجراءات التأمين يوم الخميس كان الاتفاق بالمعرض يوم السبت.

كان عندي مقابلة بالقاهرة الجديدة- التجمع الخامس يوم الأحد التالي مباشرة ليوم الاتفاق على السيارة للعمل بمشروع كبير بشارع التسعين بعد الجامعة الأمريكية مع مقاول باطن لشركة إعمار الإماراتية الكبرى المعروفة.

استمرت المقابلة ست ساعات بلا مبالغة مع المهندس مدير المشروع.. معتاد أنا على جنون المهندسين لكن هذا الرجل كان حالة فريدة لم أقابل مثله بحياتي !

-٥-

المُقابلة

ما أبشع الإنسان حين يتحول إلى ذئب بشري مُسْتَتِر من أجل المال، تجده يركع بمحرابه، ينسى آدمية من حوله، بل ينسى نفسه هو شخصيًّا وشكله العام ونظرة الآخرين إليه حين يلهث بشكل مستمر خلف شهوته حتى توصله إلى مثواه الأخير! بعض رجال الأعمال ممن يديرون بأنماط غير معتادة وخارِجِ نطاق المألوف؛ يفعلون ذلك بمن يعملون عندهم أو بمعنى أدق أُفَضِّله من يعملون معهم.

رتبتُ لاستلام السيارة بدون لوحة معدنية يوم الأربعاء والاستلام النهائي يوم الخميس لا لشيء إلا لوجود السيارة أمام البيت بأسرع ما يمكن، وبدون أرقام لتأكيد أنها غير مستعملة، ربما أجاب ذلك على تساؤل الشخصية اللزجة! ولربما أطفأ ذلك الصنيع ما أشعله ذاك الرجل في صدري هكذا رأيتُ نفسي الخبيثة! أو التي لا تؤجل الرد. كانت المقابلة يوم الأحد السابق لاستلام السيارة بنفس الأسبوع.

الوقت الثامنة صباحًا، المكان فيلا بالتجمع الخامس، المسمى الوظيفي لمن سيجري المقابلة مدير المشروع: بنهاية الأربعينيات، قصير القامة، سمين مهلهل الثياب، أشعث الشعر، مُدخن شرس، ليس به ما يدل على الذكاء إلا عين جاحظ بها تركيز منقطع النظير.

أول جملة قالها ببداية المقابلة:

- أنا اخترت السيرة الذاتية بتاعك من وسط تلت تلاف C.V يا ترى إنت فعلًا اللي مكتوب في الورق ده!؟

جملة مفاجئة صادمة تحتاج أن أتقمص شخصيته؛ كي أستطيع أن أفهم لماذا قالها! لكن شخصية كهذه تحتاج بعض الوقت كي يتم الحكم عليها، وما أُضْرِمَ بذهني لحظتها كانت صورة الريس عمر حرب عندما قال لهانيَ سلامة (أنا اصطفيتك!) قلت بقليل من الاندهاش والتعجب:

- يا سلام!؟ تلت تلاف؟.. عمومًا اسأل حضرتك كما تشاء ولكن لا تنتقل من سؤال إلى آخر حتى تعطيني response (رد فعل) عن إجابتي وهذا الأسلوب اعتدت عليه بالمقابلات؛ فهو يعطي الطرف الآخر انطباعًا قويًّا عن ثقتك بنفسك من ناحية ومن ناحية أخرى ربما هو نفسه لا يعرف إجابة السؤال بشكل صحيح.

أسئلة كثيرة تُوَجَّهْ للمهندس حتى أذان الظهر، إجراءات عادية صلاة ثم عزومة غداء وبعدها أخذ يسأل أسئلة للمشرف ثم أسئلة للصنايعي!.. وأنا صابر حتى يقتنع تمامًا بي ويأتي دوري في قيادة المقابلة.. نعم يجب أن تكون القيادة متبادلة.

بعد أن انتهى واطمأن قلبه أتى السؤال التقليدي:

- عاوز راتب كام؟

- عاوز مليون جنيه! إنت ممكن تديني راتب كام؟

- لا ما هو لازم إنت تحدد مرتبك، ده الطبيعي.

- مش أعرف الأول الشغلانة عبارة عن إيه؟

- أربع أبراج هنا في التجمع، مقاول باطن لشركة إعمار كهرباء وميكانيكا.... وإحنا جايين من الإمارات عشان ننفذ المشروع للشركة وخدنا منهم مقاولات كتيرة في الإمارات، حتى المهندسين

جايين معايا من الإمارات وعلى فكرة الفيلا دي مقدمها هدية من صاحب الشركة! وأنا عليّ الأقساط، إن شاء الله تنبسط معانا.

تذكرت كلمة القرموطي البلعوطي: (العــــب!) شوف يا هندسة أنا لسه نازل من السعودية على أساس البلد حالها هينصلح الفترة الجاية... اقنعني إني أقعد في مصر وما أسافرش السعودية تاني.. يعنى على الأقل نفس الراتب لكن بالجنيه.

– موافق، هتستلم الشغل إمتى؟

– إديني أربعة أيام أشتري عربية وأطلع رخصة مصرية.. يعني يوم السبت.

– إنت عاوز تشتري عربية وتطلع رخصة في أربعة أيام!؟

– أيوه إيه المشكلة؟

– هنا في مصر؟

– أيوه، (بالطبع هو لا يعلم أني اشتريت السيارة فعلًا.)

قال بدهشة شديدة وتأكد من استحالة حدوث ذلك:

– أقول على نفسي (مَرَهْ) وألبس طرحة لو عملت كده في أربعة أيام.

– إن شاء الله هاعمل كده ومفيش داعي للطرحة .

اتصلت به يوم الخميس ليلًا أخبره أني سأكون بالعمل ومعي السيارة بالموعد. صُدِم صدمة شديدة وقال:

– يعني أجهّز الطرحة!؟

-٦-

كرومبو وأنا

كانت هذه الجملة كافية كي أستطيع تَقَمُّصَ شخصية مدير المشروع وأعرف أنني لن أظل بهذا العمل طويلًا.. (أقول على نفسي مَرَهْ وألبس طرحة لو اشتريت عربية وطلعت رخصة مصرية في أربعة أيام!)

هذا رجل يثق في نفسه زيادة عن اللازم، وما سيراه هو سيكون الحقيقة! التي لن يرى ولن يسمع سواها، هكذا هو.

لا أستطيع العمل بهذه البيئة التي تُعاني من السُعَار، ولكن لا يجب أن يقطع إنسان رزقه بيده خاصة أن الراتب كان مغريًا جدًّا.. توقعت أنه يحتاج مهندس لدية خبرة ليقدمه للاستشاري ويضبط له طلبات شراء المواد والاعتمادات والرسومات التنفيذية في مدة لن تتجاوز ثلاثة أو أربعة أشهر بأقصى تقدير.. ولا ضير في ذلك فهذا هو القطاع الخاص! عرض وطلب، هكذا رأيت نفسي. ومدة عمل قصيرة باتفاقٍ محترم أفضل من مدة عمل طويلة جدًّا وبدون أجر تقريبًا! فليس الراتب هو ما يكفي طعامك وشرابك وكل مستلزمات حياتك وفقط!

طوال عمري كنت متمردًا على العمل بالقطاع العام لهذا السبب، لا يوجد به منافسة ولا محاولة للوصول للأفضل؛ لأن من يعمل مثله مثل من لا يعمل يوجد راتب بنهاية الشهر! كرهت جدًّا هذا

المثل الشعبي الذي كان يلاحقني بكل مكان ببداية حياتي العملية.. (الحنفية اللي بتنقط أحسن من الدش اللي بيدفئ) ومثل آخر يُعلم الشباب التنطع (إن فاتك الميري اتمرغ في ترابه)!

هذه القراءة برأس مدير المشروع لا تُقال له صراحة لاعتباراتٍ كثيرة. بعد المقابلة تأكدت أني سأستلم السيارة بكل الإجراءات اللازمة يوم الخميس، تبقى أمامي قصة الرخصة التي يجب أن أحصل عليها بأقصى تقدير في يومين أو ثلاثة بعد تجربة مدرسة تعليم القيادة (دلَّة) المريرة بالسعودية، كنت متأكدًا أنه من المستحيل أن أحصل عليها بمصر بسهولة، فلم يكن أمامي اختيار سوى البحث عن مُخَلِّص وبأي ثمن. سألت من يفهم بهذه القصص، ودَلَّني على رجل من أهل القرية، ذهبت إليه وكان قد لفت انتباهي قديماً جدًّا بأناقته الملحوظة رغم أنه إنسان بسيط جدًّا، هذا الرجل- رحمه الله تعالى وغفر لنا وله- كنت أحبه جدًّا رغم أنه يعتبر في عُرْف بعض الناس فويسدٌ صغير! إلا أني كنت أعتبره يسعى في قضاء حوائج الناس وبالتأكيد مثلي كثير. يمتاز هذا الرجل بالهدوء والتأني، أنيق جدًّا في هيئته رغم سمنته الملحوظة، محترم جدًّا في كلماته، ذوق جدًّا في معاملاته.

لي معه قصة عجيبة.. تشبه قصص المخبر السري المفتش كرومبو!.

- يا أستاذ (.......) عاوز رخصة قيادة خلال يومين.

- يوم واحد، بُكْرَه تكون عندك يا باش مهندس.

- المطلوب؟

- صورة البطاقة وصور شخصية وخُمسمية جنيه، مش لي طبعًا ده عشان الطقم (مسميات وظيفية)

- ماشي كلامك يا كبير.

- المهم نسافر مع بعض الصبح وتنفذ التعليمات حرفيًّا.

- تمام.

- المهندس مدير اللجنة بيلبس (قبعة) على رأسه (برنيطة) عارف إعلان سجاير مارلبورو؟..... أيوه قبعة زي الرجل بتاع الإعلان بالظبط.

- تمام.. طيب إنت عارف معنى كلمة مارلبورو؟

بابتسامته اللطيفة المتميزة:

- لا والله معناها إيه؟

قالها بشيء من التعجب! فليس هذا وقت سخافات.. هو بحالة من التركيز كي يكشف لي عن الخُطة، قرأت ذلك بالطبع لكن أحببت أن أجعل الموضوع بشيء من الود فالرجل يريد أن يخدمني..

MARLBORO:

(MAN-ALWAYS-REQUIRE- LADY- BECOUSE – OF- ROMANTIC)

- يا سلام!؟ كل حرف بكلمة؟ طيب الكلام ده معناه إيه؟

- الرجل دائمًا يحتاج إلى المرأة من أجل الرومانسية.

- عشان كده النوع ده غالي.

(وأطلق ضحكة بسيطة) وأصبح بيان باقي الخطة سهلًا عليه، خلاص أصبحنا صديقين..

هننزل عند بيت المهندس الأول نعرفه الموضوع ويعرف شكلك من الصور.. بعد كده هنروح المكتبِ عندي نفطر لأنك ضيفي اليوم ده.. (منتهى الدقة والروعة والحِنْكَة والتميز والعز في فطوره) بعد كده هتسحب استمارة الاختبار عادي خالص وتملاها.. وما تقفش في طابور، ولا لك دعوة خالص بأي حد، وفي الوقت المناسب هتصل بيك.

نفذت التعليمات حرفيًّا كما طلب (هنا مفيش هزار!).

دق التليفون في الوقت الذي حدده هو.

- أيوه يا باشا.

- ها.. شفت المهندس اللي لابس القبعة؟

- أيوه.

- طيب ادخل عليه دلوقتي فورًا، سلمه الملف اللي معاك واخلع انت على طول دورك انتهى.. وتعالى استلم الرخصة من البيت، اوعى تتلفت حواليك يمين واللا شمال.

-٧-

شخصية هُلامية

تَشْعُرُ أن هذا الإنسان الهُلامي أتى من كوكبٍ آخر! لا يتكلم مثلنا، لا يرتدي ملابسه بطريقة معتادةٍ مثلنا! حتى طريقة تفكيره مُتْعِبة لمن يستمع إليه حين يفكر بصوتٍ عالٍ.

دائمًا ينسى مفتاح السيارة بداخلها ويخرج منها مسرعًا مغلقًا الباب بسرعة، يتحدث بهاتفه بتركيز شديد، تشعر بحريق هائل حدث أو على وشك الحدوث! وبعد ساعة أو ساعتين بإجراءات العمل اليومية يتذكر السيارة وأنه تركها تعمل! يجري عليها ويكتشف الفجيعة.. الأبواب جميعًا موصدة والمفتاح بالكونتاكت! كثيرًا كان يأتي الموقع بقميص مقلوب تشعر أنه خرج لتوّه من فم كلب أصابه السعار! يتكلم كثيرًا عن العَفَنْ! ليس بالمعنى المتعارف عليه ولكن يقصد البخل الشديد وتقليص الأسعار بشكل مميت حين التفاوض مع الموردين، وبعد الضغط حد الانفجار والوصول إلى أقل الموردين أسعارًا؛ تأتي بعدها مرحلتان الأولى: إزهاق روح المورد الأقل سعرًا بالضغط عليه بكل وسيلة وحيلة؛ كي يخفض الأسعار أكثر والمرحلة الثانية مرحلة جمع أشلائه بالدخول بتفاصيل التفاصيل كيف وصل السعر إلى هذه المرحلة!؟ كم كلفك شراء المواد كم سعر التصنيع والتخزين والنقل، لا ينبغي أن يزيد الربح في ظل الحالة الاقتصادية العالمية إلى ١٠ ٪ .

وأخيرًا كانت جملته الشهيرة العجيبة التي يريد أن يقول من خلالها أن الشركة حصلت على المشروع بأقل سعر وهذا ما أجبره أن يكون كذلك بهذه الحالة التي وصفها بنفسه وكان يتغنى بها ويريد أن يكون كل مهندسيه مثله (معفن!).

في كل تعاملاته كان يقول لكل مورد دعت عليه أمه بليلة القدر أن قابل هذه الشخصية يومًا: (ده إحنا قلعنا البناطيل لحد ما رِسي علينا المشروع!) ولم يستحِ أن يقول نفس الجملة لموردين إناث!

بالطبع هذه الصورة كانت فقط لمن هم دونه ويحتاجون إلى التعامل معه.. على النقيض تمامًا كان وجهه مع استشاري المشروع والمقاول الرئيسي يتحول فجأة إلى ملاك طاهر برئ، لا مثيل لأخلاقه!

تبًّا لكل مديري المشاريع من هذا النوع.

***

انفجر إطار السيارة النيسان الأمامي يمين على الطريق الدائري، وحقيقة كنت مسرعًا جدًّا تجاوزت السرعة حاجز المائة وأربعون كيلو مترًا بالساعة!

صوت الانفجار كان مدويًا، للوهلة الأولى تصورت أنه ليس عندي، ولكن لا إراديًّا تجد قدمك تضغط على الفرامل حتى تستطلع الأمر، وهذا هو الخطأ بعينه؛ فلا ينبغي الضغط على الفرامل حين ينفجر الإطار مباشرة حتى تعلم حدود الطريق كسيارات خلفك وعن يمينك ويسارك، وحدث الكرب وانحرفت السيارة قليلًا

وصدمتني تريلا من الخلف كنت قد تخطيتها توًّا من اليمين وما إن عبرت حتى أكملت على السيارة تريلا أخرى من الأمام... وستر الله المحقق جعلني بعد الصدمتين أقف على يمين الطريق بجوار الرصيف، نزلنا جميعًا، كان معي اثنان من كبار رجال أهلي نزل الأول معي بسرعة وظل الآخر بالسيارة لا يدري ما يجب عليه صنيعه؟ أو لا يصدق أنه لا زال حيًّا!

محضر بالواقعة... الجاني مجهول ذهبت لإحضار حاملة سيارات. لم أكن متأكدًا أني سأجد السيارة حين العودة إليها إنها فوق الطريق الدائري بطريق مدينة السادس من أكتوبر. وبعد يوم مظلم أتيت بها إلى إحدى ورش القرية للتصليح؛ كي تكون على مقربةٍ منيً اتصلت بشركة التأمين.. أول جملة قالها موظف الشركة:

- لو مفيش محضر؛ مفيش فلوس هتتصرف من الشركة.

انتهينا من هذا المطب..

التالي: سيأتي المهندس للمعاينة.

المهندس:

- أنا قدَّرت تصليح العربية بخمستاشر ألف جنيه. وَقِّعْ هنا لو سمحت.

- تمام شكرًا جزيلًا، هنستلم الفلوس إمتى؟

- لا.. بعدين بعد ما تصلح العربية.. المهم تجيب فواتير.

- إفرض مفيش فلوس سيولة دلوقتي؟

- النظام كده !

عيش لك أسبوع بقى في الحرفيين.. للأسف مفيش نصف أمامي مُتاح؛ لأن السيارة موديل السنة! ممكن يمشي الحال بموديل ٢٠٠٩، ودعوات للحصول على فخذ خلفي!

أحد الصنايعية المساعدين في الحرفيين:

- باش مهندس قول لأصحاب المحلات يضربوا في الأسعار في تسجيل الفاتورة، بتوع شركة التأمين ولاد كلب.

- أستغفر الله العظيم، لا يا أسطى.. التكلفة بالمليم، ربنا يغنيها بالحلال .

نظرة تعجب.. قرأت بأفكاره رغم ابتسامة الرضا يقول:

- الرجل ده باين عليه أهبل واللا إيه !

بلعت الجملة الغاضبة قليلة الذوق التي سمعتها دون أن ينطقها ولم أُعَقِّب كي لا أأكد له وجهة نظره.

بعد الانتهاء من التصليح الذي تكلف بما يرضي الله حوالي اثنين وثلاثين ألف جنيه تم إرسال الفواتير موقعة ومختومة لشركة التأمين قالوا:

- لا، إنت وقَّعت بنفسك للمهندس اللي عاين العربية بعد الحادثة أن التكلفة خمستاشر ألف جنيه بس! لن تستلم غيرهم !

-٨-

الخازوق

من بداية ٢٠١٢ حتى منتصف ٢٠١٥ عملتُ بمجموعة هندسية كبيرة جدًّا، إدارتها الرئيسية بالرياض العاصمة وكان الفوز بهذه الوظيفة كالعادة عن طريق مسابقة علمت بها عن طريق صديقي القديم العزيز أهرام الجمعة

***

كم هو ممتعٌ ولذيذ وقت انتظار دورك لدخول المقابلة وسط المهندسين وخاصة لو كانوا جميعًا أقل منك خبرة! هذا قَلِقٌ، وهذا مُضطرِبٌ، وهذا ينتظر بشَغَف من يَخْرُج من المقابلة؛ كي يسأله عن نوعيةَ الأسئلة! وشخصيةَ من يُجْري الحوار، وحقيقة حجم الشركة؟

وقتها- رغماً عنك- تتذكر أيام خبرتك الأولى البسيطة، ووجع عدم فهم ما يدور حولك بعملك الأول بعد التخرج مباشرة فطوال فترة الدراسة خاصة إن كُنْتَ ماركة (ل- أو- ج) تسأل نفسك بكل محاضرة.. هو أنا هاستخدم الكلام ده في إيه بعد التخرج!؟ ظنًّا منك أن ما ستتعلمه كعلم أكاديمي خلال الخمس سنوات سيكون كافيًا لتكون فعلًا مهندسًا بمجرد تخرجك! والحقيقة المُرَّة بالتأكيد غير ذلك تمامًا.

الحقيقة أنك لن تصبح مهندسًا بالمعنى الصحيح الفعلي للكلمة إلا بعد أن تنطق كلمة (الخازوق) بأريحيةٍ تامة وبدون أي عُقَدْ، سواء

كانت بموضعها كأساس لبناءٍ كبير أو بمعناها الضمني لأكبر خازوق ستعرفه بحياتك إن لم تتدرب بالمواقع وتلهث خلف المعلومة!.. بعد التخرج.

أعلم أنك منذ بضعة أسطر تريد أن تعرف ماذا تعني ماركة (ل–أو–ج)!؟ ماركة (ل أو الصنارة تعني أصحاب تقدير مقبول) وماركة (ج.. أعتقد أنك عرفتها الآن.. نعم.. جيد).

نعود للخازوق! أو الفجوة بين الدراسة الأكاديمية وسوق العمل.. كيف يكون أول علاقتك بالعالم خارج نطاق الجامعة هو مشروع التخرج!؟ كيف يتم السماح لبعض أساتذة الجامعة بالعمل بمهنة التدريس بدون رقيب على أدائهم!؟ أذكر أحدهم ممن لم أفهم منه كلمة يومًا كان يتحدث عن نفسه أكثر مما يتحدث عن الهندسة! وآخر مصاب بجنون العظمة! وثالث يُخْفي فقره العلمي بغلافٍ من الحنان! يصرح بأول محاضرة له أن الجميع سينجح! كل هذا الظلام جعلني آخذ بتلابيب إنسانية استشاري أول مشروع عملت به، فلا وقت ولا مجال ولا وضع مادي أو اجتماعي يسمح أساسًا بالفشل. وكان هذا الحوار...

– شوف بقى يا فندم أنا عاوز من سيادتك خدمتين.

– خدمتين! مش كفاية واحدة؟ (بابتسامة لطيفة): قول يا سيدي.

– الأولى: تعلمني، أنا لسه متخرج وما عنديش غير اللي اتعلمته في الكلية!

- والخدمة التانية؟

- تستر عليَّ عند صاحب الشغل.. يعني مفيش داعي يعرف إني أبيض يا ورد!

- حاضر هعلمك بس بشرط..

- شروط حضرتك كلها أوامر.

- الأمر لله وحده.. كل اللي تتعلمه مِنِّي تعلمه لغيرك بعد كده اوعى تكتم علم عن حد محتاجه سواء طلبه أو ما طلبوش.. وبالنسبة لصاحب الشغل هو عارف إنك حديث التخرج عشان يستفيد هو براتب المهندس الخبرة.. ويتعبنا إحنا وخلاص.

يا سلام حين تجد القشة، أملك الوحيد كي تُنْقَذَ من الغرق. بالطبع وُجِدَتْ مهازل بأيام العمل الأولى، رغم إيمانك بالخازوق وارتداء ملابس عمل مثل التي يرتديها الصنايعية، ورغم العمل معهم يدًا بيد؛ كي تستطيع الوقوف على قدميك.. أذكر منها......

-٩-

هرتله

أذكر من هذه المهازل، بل الهرتله! أن جميع من حول المهندس حديث التخرج ينظرون إليه وكأنه يقوم بنفس دور الفنان إسماعيل ياسين في جميع أفلامه التي يسخر بها حتى من نفسه! في (الطيران- مستشفى المجانين- البوليس الحربي- جنينة الحيوانات- الفضاء) الجميع يضحك في نفسه ويكتم الضحك أمام بطل الحكاية الوحيد الذي يتصور أنه يقوم بدور آينشتين في تبسيط وشرح النظرية النسبية! بعد التخرج مباشرة يُفْتَرَضُ أنك مهندس قادر على قيادة فريق العمل وحل المشاكل المستعصية، مع أنك تحتاج إلى من يحل لك مشكلتك أولًا.

ولا يظن أحد أن هذا هو حال المهندس الضعيف أيام الدراسة فقط.. بل دكتور الهندسة نفسه إن لم يعمل سوى بالجامعة بدراساته الأكاديمية؛ تنقصه خبرة السوق التي لا تكتسب إلا بالممارسة والاحتكاك ولا يظن- أيضًا- أحد أن هذا هو حال المهندس حديث التخرج فقط، بل هو حال جميع حديثي التخرج بجميع التخصصات بلا استثناء! لأن الهُوَّة سحيقة بين التعليم وسوق العمل.

ذكرت الحال مع الاستشاري كيف كان بحلقة سابقة أما الحال مع صاحب العمل كان عجيبًا حقًّا، كانت العلاقة تمامًا كعلاقة مطلقة بحضرة ضرتها!! لا يجتمعان أبدًا. نعم يعلم أنك حديث التخرج،

لكنه يتعامل معك على أساس أنك تستنزف ثروته عند أول كل شهر؛ فيجب أن يستفيد منك قدر المستطاع بأي شكل وبأي طريقة.

الماكينة تعطلت.. الإنتاج متوقف.. لا يفهم ماذا تفعل!.. يقف فوق رأسك.. العمال لا تنتج، المشروع متوقف، وأنت كالفأر في المصيدة.. تتمنى إرضاءه، لكن كيف السبيل إلى ذلك؟

البعض يستسهل ويُضَحى بأي شيءٍ كي يتعلم بسرعة ولو على حساب خراب المكان وصاحبه، فكي تتعلم لابد أن تجرب وتخطئ وتصيب.

صاحب المصنع الأول الذي أسسته من البداية حتى بعد مرحلة تشغيل الماكينات؛ لاحظ عدم وجود أخطاء لي نهائيًّا.. لم تحترق معدة أو موتور أو كارت إليكتروني وكنت سببًا في خرابه.. وذلك بالطبع بعد الانتهاء من بناء المصنع كان يفهم جيدًا بمعادن الناس.. استدعاني وفاجأني بقوله:

- إنت اتعلمت بسرعة شغل المقاولات ووفرت على الشركة مقاول خارجي.. أنا عاوزك تتعلم صيانة الماكينات بسرعة حتى لو هتغلط وحاجات تتحرق منك! اعمل كده أنا موافق.. عشان تتعلم لازم تغلط وتْبَوّظْ..

يا اللـــــه! تخيل لما صاحب المال يقول لك جملة مثل هذه؛ بالتأكيد لم تكن من فراغ.. هو لاحظ اجتهادك وقدَّر حرصك وأمانتك. حدّث

ولا حَرَجْ عن فرحتك بأول ماكينة قد شاخت وماتت وفهمت موطن الوجع بها دون أن تبوح به لك بصوت مسموع.. وبعد التحدث إليها وفك شفرة طلاسمها ووهبت لها الحياة من جديد، وبثت بها من روحك التي وَهَبَتْ لك الحياة قبلها.

أذكر شريكًا لصاحب هذا المصنع، لكن صدق من قال: أصابعك لا تتشابه.. يوم افتتاح أول مشروع قمت بتنفيذه.. رأيته يقف سعيدًا يتأمل بهو مدخل إدارة المصنع بما به من ديكورات وإضاءة مخفيّة وثريات ذهبت إليه منتشيًا متوشحًا بالنصر، وقفت بجواره أحادثه؛ لأستمد بعض كلمات الثناء التي تعوض شقاء سنتين..

- إيه رأيك يا حاج في الشغل؟

فجأة اختفى الانبساط والانشكاح وَرُسِمَتْ ملامح الشيطان.. فأي ثناء سيتبعه منحة!

- رأيي في إيه يا باش مهندس!؟ ما الكهربا هي الكهربا واللا انت خدت كهربا ناشفة حولتها لكهربا طرية!.

انسحبت بهدوءٍ ولم أعقب.. إذا اختفت أقل درجات الذوق في الحوار فَقِلَّتُهُ أفضل.. أما عن تعاملات الفنيين بالبدايات فحدث ولا حرج.. فهؤلاء لا ينصاعون بل ولا يحترمون إلا المهندس بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

عملٌ يمكن إنجازه في نصف ساعة ينتهي بعد ثلاث ساعات! تقف تفتي بإرشادات نظرية تعطل العمل.. تجد من يقول لك:

- اصبر بس يا هندسة.

ويأخذك بعيدًا لينصحك! وإذا اعتبرته طيبًا وانصعت له.. فقد أكدت له نظرته بك ولن تستطيع أن تثني عليه كلمة بعد ذلك.

إن قررت عقاب أحدهم، يا ويلك فقد حفرت قبرك بيدك إن اتحدوا عليك.. فلم يفلح معهم بهذه المرحلة إلا سياسة اليهود (فَرِّق تَسُدْ) حتى هذه السياسة لم تكن تفلح أحيانًا.. أذكر أن اثنين من الفنيين فوق الخمسة والأربعين عامًا يعملون سويًّا في سحب الأسلاك بهمة ونشاط طوال وجودي بينهما.. ذهبت إلى مكتبي أدرس بعض الخرائط وأسمعهما يعملان ويصيحان كل على الآخر..

- ابعت السوستة يا سمير.

- قابلها يا فؤاد جايه في الطريق الخرطوم كان مسدود.

- تمام وصلت.

- اربط الأسلاك كويس وحط صابون.

- تمام رباط ما يحلوش شمشون.

- شد بقي.. شد.

- يا عم.. زوق من عندك شوية؛ المسافة بعيدة.

- شد.

- زوق.

- أيوه ماشية شد.

بعد حوالي ساعتين ذهبت أستطلع الأمر وطوال الطريق أسمع صوتيهما.. سعيدًا بتواجدي بالمكتب والعمل مستمر على قدم وساق. وحين وصلت إليهما وجدت عجب العُجاب!! كل منهما نائمٌ تمامًا مفترشًا الأرض.. وأحدهما واضعٌ قدمًا فوق أخرى مثل (كيمو في إعلان الآيس كريم) وعملهما هو تضليل المهندس الحديث بهاتين الكلمتين....

(شد.. زوق)!!

- ١٠ -

أنت كما تَراك

أنت كما ترى نفسك تمامًا، ولا تحصل من الدنيا إلا ما صدقت أنه يمكنك الحصول عليه، بشرط أن تعرف إمكانياتك وحدود الطريق.. وأن يكون حلمك بإطار الممكن.. وأن تسلك كل طرق الأسباب وتؤمن بأنه لا يضيع أجر مجتهدٍ أبدًا.

البعض ينكسر مع أول ضربة ويظن أنها النهاية وأنه لن يستطيع أن ينهض.. وبالفعل لن ينهض!؛ لأنه لا يصدق أنه يمكنه النهوض من جديد، هذه حدود إمكانياته.. هو يرى نفسه كذلك؛ فالموضوع قد انتهى والبعض الآخر يعلم يقينًا أن كل ضربة لم تقتل يتبعها قوة شيطانية أو ربانية على حسب كينونة صاحبها وأحيانًا كثيرة رؤيتك لنفسك قد توردك المهالك، لكن حتمًا ستتعلم وستصل بالنهاية.

***

كانت البدايات قاسية جدًّا.. فيمكنك أن تبدأ من الصفر ومن حقك أن تُوصَف بالعصامي. ولكن كيف نصِفُ من دخل الدنيا وبدأ حياته الزوجية من تحت الصفر!؟ هو تعبير صحيح (تحت الصفر).. والمعنى ببساطة أن تبدأ وعليك ديون للآخرين. هل هذه البداية تعتبر من الصفر!؟ شريط طويل من الذكريات مؤلمٌ جدًّا بوقته فقط. لكن طعمه أحلى من العسل بعد انتهائه بعد تكليل توفيق الله لك بالنجاح.

أصادفَكَ يومٌ كنت به مريضًا ولا تقوى على الحركة ومع ذلك لا تستطيع أن تتكاسل عن عملك!؟ أشعرت يومًا أنك غريبٌ وأنت بوطنك!؟ لا تستطيع أن ترى أولادك إلا سويعات يوم الجمعة! هذه ضريبة الاختلاف والأخذ بالأسباب وعدم الخنوع لمرجعيات الإحباط والتكاسل. أسمعك الآن تقول.. بالله قل لي إلى ماذا انتهيت الآن؟ ماذا حققت بالحياة كي تسعر شبقنا بهذه الطريقة للاجتهاد والعمل والطموح!؟ لا يوجد أمل في أي شيء! الخرابُ حلَّ بنا من كل جانب. إجابتي إليك ببساطة.. هذا أنت! وأنت فقط.. لا تحكم على الجميع بمنظورك، أما بالنسبة لي فيكفيني الشعور بالراحة النفسية ورضائي عن نفسي، فلم أتكاسل يومًا ولم أكف عن الدعاء بالخير أبدًا؛ فهو (مخ العبادة).. وتتغير الأقدار به} يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} صدق الله العظيم . وتكملة إجابتي إليك عجيبة.. النفس تحب أن تستمع إلى حكايات الضعف والحيرة وفشل الآخرين! هذه طبيعة بشرية كل إنسان يحب أن يكون أكثر تميزًا ونجاحًا.. يحب أن يستمع إلى حكايات من هم دونه! لكن القليل من يحب أن يستمع إلى قصص نجاح من هم أعلى منه إلا إن كان الشخص مشهورًا جدًّا وناجحًا جدًّا على المستوى الإقليمي أو العالمي.. حينها يخرج من نطاق المقارنة التي تحدث تلقائيًّا دون أن تشعر! وبعدها ربما يَغْبِطُكَ أصحاب القلوب النقية الطاهرة

***

كان ضمن الاتفاق بالمقابلة التي تقدم لها كالعادة مئات المهندسين سيارة للاستخدام الشخصي فقط.. سيأتي الحديث عنها بالحلقة القادمة- إن شاء الله- أما «النيسان» بعد تصليحها تم بيعها بمبلغ سبعين ألف جنيه وضعتها جميعًا مقدمًا لألف متر أرض بمدينة القادسية على بعد نصف ساعة من مدينة العبور على طريق الإسماعيلية، وتم تقسيط الباقي.. بمشيئة الله سيتم بناء عليها برجي الهندسة رقمي ثلاثة وأربعة بعد عشرين سنة! لا تتعجب.. فالمعادلة سهلة جدًّا (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا).. لا توجد مشكلة على الإطلاق إن كان الموت الآن وليس غدًا.. لئن تترك ورثتك أغنياءً خير من أن تتركهم فقراء يسألون الناس. ومن عجيب خلق الله سبحانه أن تجد من يسأل الله عز وجل عدد سنواتٍ بعينها بالدنيا ولا يريد غيرها.. عن نفسي أتحدث، أدعُو الله أن أعيش حيًّا أرزق بصحة وعمل حسن ثلاثة وثمانين عامًا فقط!، فالمسلم بعد الثمانين له كرامة خاصة عند ربه أما برج الهندسة الأول فسيتم بناؤه بمشيئة الله بمدينة المحلة الكبرى بعد سنتين أو ثلاثة.. وإحقاقًا للحق هذا النجاح شاركتني به زوجتي الحبيبة أم أولادي.

***

هل وجدت كلماتي حقًّا!؟ الإنسان يحب أن يستمع فقط إلى حكايات ضعف الآخرين! على العموم يمكنك اعتبار كل ما سبق خيال كاتب ولا يرتبط بحقيقة الواقع لا من قريب أو بعيد.

- ١١ -

عَمّ الضَّبْع

كل مُغْتَرِب يحمل معه هُمومه إلى مستقر مُقامه في بلد غربته، من أول يوم وأنَت تحلم باستقدام أهلك (زوجتك وأولادك).. ولا عزاء لمن لا يستطيع أو لا يريد أن يفعل ذلك، حتى بعد أن أصبح الموضوع بسيطًا الآن علاجه، فقط الزَّج ببعض الأموال نظير الاستمتاع مع الأهل بوطنٍ مؤقت.

***

مدير قسم الكهرباء هو من اختارني بمصر والعمل سيكون تحت قيادته ومسئوليته، احترام وتقدير وخاصة السن قد قارب على الستين.. الإقامة ببرج المجموعة، بشقةٍ مع بعض الزملاء!، الراتب كما تم الاتفاق عليه، السيارة؟ ولِمَ الحاجةً إليها!؟ بعد أسبوع من تَيَقُّن الأمر دَارَ هذا الحوار مع مدير القَسم..

– هندسة كده الاتفاق ما تَمِّشْ.

– عاوز إيه يا مهندس محمد؟

– بدل السكن عشان آخد شقة.. والسيارة.

– طيب بس طول بالك، انت لسه يا دوب بقالك أسبوع، انت دخلت للريس؟

– أنا ما أعرفش حد غير اللي اتفق معايا وجابني من مصر.

– طيب أنا هدخل للريس وأتفاهم معاه .

انشغال وتركيز بالعمل وتناسى الأمر، وإثبات وُجُود بفترة الاختبار التي بِحُكم الخبرة أصبح مفهومًا أنه من حق صاحب العمل إنهاء التعاقد بها بأي وقت دون تعويض. بعد انتهاء ثلاثة أشهر تمامًا

- هندسة حضرتك اتفاهمت مع الريس؟

- على إيه!؟

- بدل السكن والسيارة.

- آه... هو انت مش مرتاح في السكن؟ ومحتاج السيارة في إيه.. ده انت ساكن مَلِكْ في نفس البرج اللي فيه شغلك.. ووسيلة مواصلاتك الأسانسير!! (ضحكة خفيفة صفراء)

- هم مش بيقولوا العقد شريعة المتعاقدين؟

- عندك حق، الريس يا سيدي بيقول بدل السكن لما يعمل استقدام لأهله، والسيارة لما واحدة تفضى ابقى خدها.

- يعني إيه لما واحدة تفضى؟ يا جماعة التعاقد فيه سيارة وبعدين هو أنا المفروض ما اطلعش من البرج ما دام السكن جنب الشغل!؟

- والله أريح أنا مش عارف انت واجع دماغك ليه؟

- عمومًا هشوف قصة الاستقدام دي وبعدها ربنا يحلها .

كان ذلك قبل أن يكون الاستقدام سهلًا وإليكترونيًّا الآن.

***

حوار فورًا مع زميل قديم..

- بقول لك إيه يا كبير، نظام الاستقدام ازاي دلوقتي؟

- الأوراق المطلوبة معروفة استلمها من الموارد البشرية، المهم تروح تسجل اسمك بدري.

- يعني، هاروح الساعة تمانية الصبح كده؟

- لا. كده الدوام هيخلص ومش هتلحق.

- أروح امتى طيب؟

- الساعة اتنين بالليل! روح سجل اسمك في الورقة بتاع الاستقدام.

- نعم يا أخويا؟

- آه والله زي ما بقول لك كده.. سجل اسمك في الورقة وامشي.

- انت عاوز تقنعني إن فيه حد هيكون موجود هناك من الموظفين في التوقيت ده!؟

- لا.. ناس زيك عاوزين يعملوا استقدام.. الصبح بيستلموا الأوراق بترتيب الكشف ده.

***

مكان عجيب يتم قبول ٣٠ ٪ فقط ممن يتقدمون بطلب استقدام ويتم رفض الباقين لأسباب غريبة (المهنة لا تسمح، الراتب لا يسمح).. من يستلم الورقة الصفراء التي بها أرقام التأشيرات وكأنه استلم كتابه بيمينه، ويريد أن يقول لكل الحاضرين لقد فزت فوزًا عظيمًا.. ها أومُ اقرؤوا كتابيه!.

تم استلام بدل السكن بمجرد الموافقة على الاستقدام؛ كي أبدأ بتجهيز الشقة التي سأستقدم بها الأسرة.. وتبدأ إجراءات تجهيز شقة عروس جديدة: أثاث كامل، أدوات مطبخ، الأجهزة الكهربائية المعتادة بالإضافة إلى المكيفات! بكل غرفة مكيف وكذلك الاستقبال.

***

مدير القسم لديه سيارة شيفروليه أوبترا، ويشاء القدر أن تكون موديل ٢٠١١ نفس موديل سيارتي السابقة التي تحطمت بعد ستة أشهر فقط من استعمالها.. حوار آخر مع مدير القسم..

– هندسة الأولاد خلاص على وصول خلال شهر بأقصى تقدير.. الانتقال من الشقة للشغل هيكون ازاي؟

– عادى يا مهندس محمد اركب تاكسي وهات فواتير.

– تمام..

شَعُرت لحظتها أن سيارته هو شخصيًّا ستكون لي! وهى أول سيارة ستكون خالية وليس لها صاحب.

***

تم تعيين مدير للعمليات والتشغيل، وكالعادة يريد أن يثبت كرامة! بالتغيير.. وأنه يمتلك العصا السحرية.

مدير القسم طلب عمل تَصَوُّر لتغذية موقع جديد بالكهرباء بصفة مؤقتة باستعمال المولدات؛ حتى يتم تشغيل المشروع بصفة دائمة عن طريق المحولات. قمت بالفعل بالتواصل مع المهندس المقيم وعلمت بالأحمال المطلوب تشغيلها. قسمت العمل على عدد اثنين مُوَلِّد أحدهما للكرافانات (مكاتب متنقلة) الخاصة بالمهندسين وكذلك سكن العمال.. وخصصت المولد الآخر للمعدات مع تحذير المهندس المقيم من تشغيل المولد بأقل من ثلث طاقته.. بمعنى أن الأحمال يجب ألا تقل عن ثلث طاقة المولد بل تزيد وقدمت التصور لمدير القسم..

- إيه ده يا مهندس إنت ليه عامل مُولِّدين؟

- يعني، واحد للمعدات والتاني للمكاتب وسكن العمال. كده أفضل وآمن عشان الاستشاري ما يوجعشي دماغنا كل شوية؛ الكهربا فصلت.. والسبب أكيد هيكون بسبب المعدات.

لم يعقب هو.. وأنا أيضًا؛ كي لا يتصور أني أقدم له معلومة ربما لم يتقبلها! واكتفيت بتحذير المهندس المقيم .

بعد فترة وبالصدفة اتصلت بالمهندس المقيم..

- المولدات وصلت يا هندسة؟

- أيوه وصل مولد واحد كبير.

- الأحمال اللي هتشتغل عليه إيه؟

- أبدًا مكيفين للعمال دلوقتي وشوية معدات بسيطة.

- اوعى تشغل المولد على الأحمال دي.

- ليه؟ ده احنا ما صدقنا إنه وصل.

- لو شغلته هيتحرق بعد ساعات.

المهندس أغلق معي وفورًا اتصل بمديره بالإدارة الرئيسية وبدوره فورًا على مدير العمليات والتشغيل وبدوره أرسل لي «إيميل رسمي» يستفهم عن الموضوع وطبعًا صورة لمدير القسم.

قمت بالرد على الإيميل أنه لا يجوز أن يعمل المولد بتغذية أحمال أقل من ثلث طاقته؛على اعتبار الموضوع عادي والمولد الكبير لا بأس به أيضًا ولن تضر الكلمات بمدير القسم، رغم أنه أخذ قراره وأرسل المولد ولم يخبرني حتى من باب العلم بالشيء، لكن أكيد حذر المهندس المقيم بنفس الشرط؛ فالمعلومة ليست نادرة. لم يستدعيِني مدير القسم للسؤال، وكتب ردًّا بسرعة على اعتبار أنه الكبير وكلماتي خطأ ولا يؤخذ بها..

كتب يقول: المشكلة لأي معدة كهربائية الأحمال الزائدة وليس قلة الأحمال.. لا يضير المولد إن عمل بلا أحمال على الإطلاق.

بعد دقيقة واحدة استدعاني مدير العمليات والتشغيل؛ ليخبرني

بكلمات مدير القسم! قلت له قرأت رد مدير القسم على الإيميل. قال: وإيه رأيك؟ قلت: اللي عندي كتبته في الإيميل.

قام بتصرف بسيط جدًّا، اتصل بصديق له يعمل بشركة مولدات وسأله عن الموضوع.. أجابه بنفس كلماتي. في نفس اللحظة تيقنت أنه اتخذ قراره بإنهاء تعاقد مدير القسم.

حان موعد الأجازة السنوية لمدير القسم الذي كان حقيقة لا يتق الله بعمله، وهذا يكفي ولا أريد أن أبوح بما كان يفعله. يكفي أن أقول إني اكتفيت بعدم الاشتراك معه.

طلب مدير القسم أن أقوم بإيصاله للمطار وبعد ذلك استعمل سيارته حتى يعود كنت على ثقة تامة وبدون أن يبوح لي مدير العمليات والتشغيل بما يجول بخاطره تجاه هذا الرجل أنه لن يركب هذه السيارة مرة ثانية. ولا أعرف حين وداعه بالمطار لماذا أتى هذا المشهد بذهني لحظة غرس خنجر محيى إسماعيل في بطن حمدي غيث وهو يقول له: بالسلامة يا عم الضبع!.. بفيلم الغجر. مع الفارق الكبير جدًّا.. فلم تمتد يدي إليه إلا بكل خير واحترام لشيبته.. لكن قتلته نفسه! وربما غضبي من تصرفاته التي لا ترضي الله رغم كبر سنه؛ جعلت عقلي الباطن يستمتع بهذه اللحظة وقبل صدور قرار مدير العمليات والتشغيل .

-١٢-

ذهول

بالفعل حدث ما قرأته بسطور نقشت بفراغ خيالي! وتمت إقالة مدير قسم الكهرباء بالمجموعة أثناء فترة أجازته بمصر تَحَتَّم الواجب إبلاغه تليفونيًّا بشكل شخصي كي يعيد ترتيب أفكاره وحساباته من جديد قبل أن يرجع إلى المملكة. واستلمت السيارة بشكل رسمي، ومن عجائب القدر أن هذه السيارة كما قلت آنفًا موديل ٢٠١١ والأعجب أن عدد الكيلو مترات التي حققتها السيارة حين استلامها كانت نفس عدد كيلو مترات السيارة النيسان حين فقدتها.. وما أدهشني حقًّا أن هذه السيارة الشيفروليه أوبترا ظلت معي نفس المدة تمامًا التي أحب أن أمتلك بها سيارة جديدة. الثلاث سنوات الأولى للسيارة، قبل أن تفتح فمها لتلتهم النقود عند الميكانيكي والكهربائي! وحققت بها ثمانين ألف كيلو مترًا.

***

توقعت أن يصدر قرار تعييني مديرًا لقسم الكهرباء بالمجموعة فورًا؛ فلا يوجد بالإدارة الرئيسية أو بالمواقع من هو أكبر سنًّا أو كفاءة أو يصل بديلًا لمدير القسم. ولكن لا أحد يستطيع أن يُخمن ما يدور برأس مديري العمليات والتشغيل! والمرتبات الفلكية التي لا يمكن لأحد بعيدًا عن المجال تصورها أو التصديق بأن أحدًا

يمكنه أن يحصل على راتب كهذا.. راتب شهري يتعدى المائة ألف ريال سعودي! ناهيك عن المدير العام أو رئيس مجلس الإدارة.. وهي مسميات وظيفية بعيدًا عن مسمى المالك أو صاحب المال. وغالبا ما يفوز بهذه المناصب الحساسة أُناس من جنسيات عربية (فلسطينية أو لبنانية).. أسوأ جنسيتين يمكنك أن تتعامل معهما بالغُربة!! خاصة الفلسطيني خارج فلسطين.. التعامل مع اليهود أسهل بكثير جدًّا. دهاءٌ يفوق الوصف ورقص على كل الحبال، ومعرفة حقيقية وأكيدة بالمكان الصحيح الذي يؤكل منه الكتف دون إجهاد أما المصري بكل بلاد الغربة هو عصب العمل الحقيقي، يُنْهِكُ نفسه تفانيًا وإخلاصًا وتركيزًا ولا نجاح للمنظومة بدونه، ولكن للأسف الشديد لا يُجيد فنون الكلام والنفاق حقه مهضوم دائماً بسبب التناحر وعدم إجادة فن الإدارة!

***

مشروعان عظيمان من العيار الثقيل (مستشفيات) متوقفان تقريبًا.. نسبة إنجاز الأعمال الكهربائية لا تتعدى عشرين بالمائة ويظهر ذلك جليًّا بالمستخلصات أو المستحقات المادية التي حصلت عليها الشركة بعد ست سنوات كاملة من بدء العمل بهما! والسبب مجهولٌ لدى الإدارة، وأصابع الاتهام تشير إلى الاستشاري حينًا وإلى نقص التوريدات والعمالة حينًا آخر.

***

بالشركات الكبرى لا توجد خسائر تقريبًا لوجود معلومة اقتصادية بديعة تستخدمها هذه الشركات.. وهي الارتفاع المستمر بأسعار الأرض. تقوم هذه الشركات بشراء قطعة أرض بقيمة الدفعة المقدمة لكل مشروع تدخل به ثم تبيعها بنهاية المشروع بعد تسليمه، فسواء ربح المشروع أو خسر- ونادرًا ما تحدث الخسارة- وإن حدثت خسائر فغالبًا ما تكون بسبب إطالة مدة تنفيذ المشروع عن الجدول الزمني لمراحل التنفيذ. والدفعة المقدمة دائمًا تكون عشرة بالمائة من إجمالي قيمة المشروع.. أي أنه لو كانت المقاولة مائتي مليون مثلًا فإن الدفعة المقدمة تكون عشرين مليون.. تستلمها شركة المقاولات التي تم ترسية العطاء عليها من قبل أن يتم دق مسمارٍ واحد بالمشروع.

***

لمدة أسبوعين كاملين كانت تأتيني الأوراق للتوقيع عليها كرئيسٍ لقسم الكهرباء بالمجموعة دون أن يتم إعلان ذلك بشكلٍ رسمي. كنت أمارس ذلك دون تعقيب.. فربما تكون فترة تجربةٍ أو بشكلٍ مؤقت حتى يتم تعيين مديرٍ للقسم، أخبار تعيينات كبار المديرين تسري بالشركات الكبرى كالبرق.

تم تعيين مديرٍ عامٍّ للمجموعة كلها التي تتكون من خمس شركات للمقاولات (بناياتٍ- كباري- طرق- سكك حديدية- بنايات تحتية وحدائق) وتحتل التصنيف الأول بالمملكة.. وتستحقها عن جدارة.

استدعاني مدير العمليات والتشغيل الفلسطيني وكان يتعامل معي باحترام كبير.. سألني عن موقف المستشفيات وكانت إجابتي صادمة له حقًّا.. لا أعرف شيئًا عن هذين المشروعين!).. كنت مكلفًا من قِبَل مدير القسم بمتابعة المشروعات الجديدة: تسعير، رسومات تنفيذية، اعتمادات.. وخلافه. والمشروعات القديمة كانت مع زميلٍ آخر هو يتابعها منذ زمن بعيد!

وصل الخبر للمدير العام الذي أمر بإقالة الزميل وتكليفي بإنهاء الرسومات التنفيذية للمشروعين في مدةٍ لا تتجاوز الأسبوعين، وإلا ستتم إقالتي أيضًا !

-١٣-

الكتلة

تَسَرَّبت أخبار المدير العام الجديد كالنار في الهشيم! راتبه الضخم.. علاقاته، جنسيته، والأهم والمُلْفِتُ للنظر هيأته الأنيقة جدًّا رغم ضخامة جسمه فمن أضْرَمَ فتيل الوصف كان دقيقًا حقًّا حين وصفه بالكُتْلة!.

***

أبلغني مدير العمليات والتنفيذ بقرار المدير العام بنفسه في مكتبه كتصرفٍ ودودٍ منه، لكنه أسْعَرَ شبقي لرؤية المدير العام الذي اتخذ هذا القرار الهزلي دون أن يتناقش معي؛ فللموضوع حيثيات خطيرة وجذور ممتدة بأرض المواقع كيف أقوم بإنهاء الرسومات الخاصة بالخط الإفرادي للقدرة للمشروعين ولا يوجد هذا المخطط لكل مبنى على حدة؛ كي أَجَمِّع كل المباني في مخططٍ واحد وللمشروعين خلال أسبوعين فقط! هذا أمر مستحيل على كبار المكاتب الاستشارية أن تقوم به في هذه المدة التي قررها سيادته.

أخذت منه موقفًا من قبل أن أراه.. فقراره هذا لا يعنى لي سوى أنه شخص أرعن أو مغرور! أو يضغط إلى أقصى درجة كما يفعل معظم من يفهم بعلم الإدارة للحصول على أفضل النتائج مع وضع المهندس في بلورة المكافآت المُغرية والتي هي بالطبع عند خبراء المهندسين وَهْم مُسْتَتِرٍ إلى حين!.

***

صباح اليوم التالي بدأت بدراسة مخططات التصميم؛ كي أتعرف على المشروع الذي أشار لي عليه مدير العمليات والتشغيل ليكون نقطة البداية وعند الانتهاء من الرسومات الخاصة به سأبدأ في المشروع الآخر.

***

استدعاءٌ من مكتب رئيس مجلس إدارة شركة المباني التي أنتمي إليها بالمجموعة.. تحية محترمة من الرجل وقدم عرضًا مغريًا بالفعل.. عبارة عن مكافأة قيمتها خمسة عشر ألف ريال حين الانتهاء من رسومات المشروع الأول على الأقل في أسبوعين. وعدته أن أبذل قصار جهدي.. وطلبت زيارة المشروع الذي يبعد عن الإدارة الرئيسية بالرياض كما تبعد القاهرة! وبالفعل قمت بزيارة الموقع؛ كي أستكشف عن قرب ما وصلت إليه التركيبات الكهربائية.. وكانت الفجيعة الكبرى، التركيبات لا تتعدى عشرين بالمائة ولا يوجد رسومات

SINGLE LINE DIAGRAM POWER

أو رسومات الخط الإفرادي للقدرة لكل مبنى على حدة من إجمالي عشرة مبانٍ بالمشروع ليس ضمنها المبنى الرئيسي.. والمطلوب هو إنهاء نفس النوع من الرسومات للمشروع بالكامل والذي سيتحدد من خلالها عدد المحولات وقدراتها اللازمة للمشروع؛ كي تبدأ إجراءات التعاقد عليها ثم توريدها وتركيبها واختبارها! رجعت مكتبي بشحنة كبيرة من المعلومات الدقيقة عن وضع كل مبنى على حدة.. وبالتالي لم يكن صعبًا الحصول على القدرة الإجمالية للمشروع وتحديد عدد

المحولات المطلوبة قبل البدء بالرسومات. وما توقعته حدث بالفعل تم طلب القدرة الإجمالية للمشروع وعدد المحولات.. حددت ذلك بدقة متناهية قبل أن تبدأ مرحلة الرسومات التنفيذية وبدأت أولى خطوات التعاقد مرحلة اعتماد ماركة المحولات وعروض الأسعار.

هذا يحدث بواسطة قسم المشتريات وأنا منهمك في تحضير الرسومات لكل مبنى على حدة بعد حوالي ثلاثة أيام من العمل المضني والتركيز بمساعدة صغار المهندسين.. شعرت بحرارة تلفح ظهري رغم وجود المكيفات! كنت جالسًا بالجزء الخاص لرسام الأوتوكاد على مقعده وأمام جهازه أتفحص ما انتهى إليه. انتبهت لمصدر الوَهَج فإذا بكتلة أنيقة من اللحم كما وُصِفَت لي.. بالتأكيد هذا هو المدير العام الجديد، ودار هذا الحوار الذي بدأ هو به وهو منحنيًا يتفقد جهاز الكمبيوتر..

– إنت بتعمل إيه بقى!؟

– مين حضرتك أساسًا عشان تسألني باعمل إيه؟

– أنا المدير العام الجديد؟

– آه.. أهلًا وسهلًا بحضرتك، حمدًا لله على السلامة يا فندم.. أنا شغَّال في رسومات الخط المفرد للقدرة للمشروع الأول.

– هتخلص امتى؟

– بعد ٣٠ يوم بالتمام والكمال.

– بعد نص ساعة حصلني بمكتب مدير العمليات .

ولا يهمك أمر أي مخلوق، أنت كما تراك.

-١٤-

المدير العام

بعد نصف ساعة تمامًا ذهبت لألتقي سيادته بمكتب مدير العمليات والتشغيل تصحبني شحنة سابقة بعزمه بالإطاحة بي إن لم أنته من رسومات المشروعين خلال أسبوعين فقط! لم يتفضل عليّ بالجلوس ودار هذا الحوار.. الكتلة:

– إنت عندك كام سنة يا باش مهندس؟

– تخطيت الأربعين بقليل.

– يعنى مهندس كبير سنيور.

– أكيد.

– إنت بتشتغل أوتوماتيك واللا مانيوال!؟

قلت بنفسي.. هو أنا غسالة!.

– يعني إيه يا فندم أوتوماتيك واللا مانيوال؟

– يعنى طريقتك في الشغل في التصميمات بتشتغل ببرنامج واللا بتشتغل بالطريقة البلدي التقليدية؟

– بنشتغل ببرنامج الرسم الهندسي المعروف الأوتوكاد وبنستعمل الآلة الحاسبة.

– عشان كده!؟ بتقول محتاج للمشروع الواحد شهرًا كاملًا.

– ده طبيعي يا فندم، دي كهرباء يعني روح المشروع وغير مسموح فيها بالخطأ. والبرامج اللي حضرتك بتتكلم عنها ما تنفعشي خالص دي بتستخدم بتطبيقات تانية، مش في مشروع شغال من ست سنين والمفروض الشغل اللي تم يتآخد في الحُسبان.

– أنا أقدر أصمم برج مائة دور في ساعة زمن.

– ده عشان شغل خرسانة صماء، والبرنامج بتغذيه بالمعطيات وهو بيعطيك النتايج فورًا.. الكهربا مش كده خالص!.

– باش مهندس هم أسبوعين مفيش غيرهم،

– إن شاء الله شهر كامل لكل مشروع، مفيش مخطط مفرد للقدرة لكل مبنى على حدة! هعمل ده الأول وبعد كده هجمع المشروع كله في مخطط واحد.

– انت هتعمل لي فيها مفيش منك، أنا هجيب مهندس معرفة يخلص الشغل ده كله في أسبوع.

– لو خلص مشروع واحد قبل شهر ونص مرتبه كله اخصمه من مرتبي!.

– يا سلام! للدرجة دي واثق من كلامك؟

– طبعًا.

– طيب اصبر وهتشوف.

أخذ يعبث بهاتفه المحمول وتحدث مع صديق له بمكتب استشاري وطلب منه إنهاء هذا العمل بأسبوع.

الكتلة..

- فيه مهندس هييجي يقابلك بُكْره أعطه كل الداتا اللي عندك.

- تمام، لكن لي طلب عند حضرتك.

- اتفضل.

- قبل ما تآخد قرار إقالتي اعطِ لنفسك فرصة، وشوف الأول أي مهندس حضرتك هتستعين بيه هيقوم فعلًا بالمهمة واللا لأ؟ لو قدر يخلص الشغل أنا هاقدم استقالتي، لو ما قدرشي يخلص الشغل، أنا موجود .

صمت الرجل تمامًا لكنه حدَّق بي طويلًا دون أن يعقب. يبدو أن كلماتي إليه كانت صادمة لم يتوقعها.

باليوم التالي بالفعل أتى المهندس واجتمعتُ به منفردًا وأعطيته كل المعلومات التي تساعده وتمكنه من إنهاء المخططات النهائية للمشروع الأول بناءًا على طلبه وجعلته يُقر أمام كبار المديرين باستلامه كل الداتا اللازمة ولأنني كنت متأكدًا أنه لن يقوم بهذا العمل لمشروع أُنْجز خلال ست سنوات عشرين بالمائة فقط! لم أضيع وقتي بانتظاره وأَكملت عملي الذي كنت قد بدأته. وما توقعتُ قد حدث ولم نَرَ لهذا المهندس وجهًا بعد ذلك وكلما مَرَّ عليَّ المدير العام وأنا بتركيز بالعمل

ينظر لي بابتسامة رضا وإعجاب بثقتي بالله ثم بنفسي، وكان يقول هذه الجملة دون أن يملَّ من تكرارها..

- اشتغل، اشتغل لما نشوف آخرتها إيه!؟ يا ترى على اللماضة دي شغلك هيعتمد من الاستشاري!؟

كنت أنظر إليه بعين يملؤها التركيز بالعمل، مع شرود التحدي، فالموضوع وصل لمرحلة أكون أو لا أكون! كانت تقول له عيني.. أهذه هي كلمات التشجيع التي تعينني على ما ابتليت به.. لكن بمنتهى القوة والثقة.

وكلما انتهيت من مخططات مبنى واعتمدها الاستشاري كنت أرسل الاعتماد إليه مباشرة عن طريق الإيميل بعد ذلك كان يمر بمكتبي دون أن ينطق بكلمةٍ واحدة.

***

أنت كما تراك، لكن أعلن عن نفسك بالعمل والاجتهاد.

- ١٥ -

دَبِّرْ حالك

وسط هذه المعركة الشرسة بالعمل كانت حياتي الأُسَرية قد انتظمت، تم استقدام زوجتي وأولادي، سيارة العمل لخدمتي وحدي، بنهاية كل أسبوع نتنزه بالمطاعم الكبرى، وأماكن الترفيه، الأولاد بالمدارس، زوجتي الطبيبة لأول مرة تقيم بالبيت بلا عمل، واستمرت كذلك ثلاثة أعوامٍ ونصف كاملة، هي مدة تواجدي بهذا العمل.. دون أي قلقٍ أوً تذمر، كانت أسعد سنوات عمرنا على الإطلاق، فما أجمل أن يعود الزوج متعبًا من عمله ويجد زوجته بانتظاره بابتسامة تنسيه هموم يومه، ولقمة طيبة تسد جوعه، وجلسة سمر وسط أولاده الذين ينعمون برعاية الأم بصفةٍ مستمرة بحياة هادئة لطيفة بعيدًا عن النوبتجيات الليلية لطبيبة النساء والتوليد أتذكر الآن العملاق فؤاد المهندس حين كان يعمل مهندسًا بالسد العالي وزوجته الجميلة الفنانة شويكار (ليلى) تعمل طبيبة نساء وتوليد والمسكين يحتاج إلى دفئها وحنانها فترة أجازته وهي غارقة بعملها.. قاتل الله من أخرج المرأة للعمل! بالطبع إلا لضرورة.. بهذا التوقيت كنت أعيش أسعد أيام حياتي.

***

لكن دوام الحال من المحال! فبعد عام وبضعة أشهر نزلت أم الأولاد لقضاء بعض شئونها من ناحية عملها ومعها طفلتي الصغيرة،

كنت أنتظرها وباقي الأولاد كانتظار هلال العيد.. بعد أسبوعين تمامًا قام لصٌّ بخطف حقيبة يدها! وكان بها جوازي السفر ولسوء الحظ كان بالشنطة إقامتها وإقامة الطفلة.. وبدون هذه الأوراق الهامة بالطبع لن تستطيع العودة للمملكة إلا بعد استخراج جوازات سفر جديدة ووضع تأشيرات جديدة عليها.. وبعد دخول المملكة تبدأ إجراءات استخراج إقامات جديدة.

بالفعل بدأت هي باستخراج جوازي سفر لها وللطفلة بعد عمل محضر بالواقعة، وبدوري سألت عن الإجراءات الواجب أن أقوم بها بالمملكة كي يتم وضع تأشيرات جديدة.. تم إرشادي لاستخراج (برنت) أو ورقة مطبوعة من الجوازات تحوي الاسم ورقم جواز السفر ورقم الإقامة للزوجة والطفلة وبعد ذلك تقديمه للمكتب الرئيسي للخارجية السعودية.

قمت بذلك بالفعل، ووقفت بشباك رقم واحد ومعي الورقة التي تحوي أرقام الجوازين والإقامتين وحين وصلت للموظف دار هذا الحوار..

- السلام عليكم.

- أهلين إيش فيه عندك؟

- زوجتي وبنتي الصغيرة سافروا على مصر والجوازين والإقامتين فقدوا، وده (برنت) بأرقام الجوازين والإقامتين.

- نعم، وإيش المطلوب؟

- المفروض حضرتك اللي تقول لي! أعمل إيه؟

- ما فهمت عليك، إيش تبغي يعني!؟

- جوازات السفر والإقامات ضاعوا في مصر، كانوا مع زوجتي وهي في أجازة وضاعوا.. والمطلوب إن زوجتي وبنتي يرجعوا السعودية.

- معك صورة الإقامات؟

- لا، بس ده (البرنت) المعتمد من الجوازات السعودية وبيثبت أرقام الجوازات والإقامات وحضرتك ممكن بنفسك تكشف عن الأرقام دي على الشبكة.

- معقولة يا شيخ ما عندك صور للإقامات؟

- والله العظيم ما عندي.

- ما عندك.. ما عندك رُوحْ دَبِّرْ حالك!

قلت لنفسي (الله يخرب بيت دبر حالك دي!)، ذكرتني بما حدث معي بقصة سيارتي الأولى..

- أيوه يعني حضرتك أعمل إيه يعني؟

- روح دبر حالك يا خوي!.

- حضرتك أدبر حالي أعمل إيه؟، فيه ثلاث بنات أولادي في

البيت وأمهم في مصر وعاوز أعرف إيه المطلوب عشان أعمله.

- روح يا شيخ دبر حالك ما بعرف، خلفك السرج (الطابور) طويل لا تعطلنا.

- طيب من فضل حضرتك فين مدير الصالة عشان أتفاهم معاه؟

- أنا مدير الصالة!

لا يوجد أفضل من هذا المثال وهذا الموقف؛ ليجعلك تشعر أن النهار فجأة انقلب إلى ليل بهيم! هذا هو مكتب الخارجية السعودية الرئيسي، وهذا هو مدير الصالة الخاصة بهذا الشأن! يا ربي، كم هو ضعيف هذا الإنسان وليس له تصريف بدونك وإن اتضحت السُّبل والأسباب .

فالأسباب مجرد قانون وليست بالضرورة توجب الحل أو الوصول للهدف.

-١٦-

يا فرج الله

عندما تغلق كل الأبواب بطريقة تَشْعُر معها أن المنطق قد مات والذي يسود هو الغير منطقي.. لا تُتعب نفسك بكثرة التفكير؛ لأن المشكلة ببساطة لن يتم حلها الآن! وذلك ليس بالضرورة لأسباب منطقية يمكن تتبعها واحدة تلو الأخرى.. إن وصلت الأمور إلى تلك النقطة فحل المشكلة لن يكون أبدًا منطقيًّا بل سيكون قدريًّا حين تأتي المشيئة.

وبالفعل هذا ما حدث معي تمامًا.. رئيس الصالة بالخارجية السعودية أَصَرَّ على موقفه فلن يكون هناك أي تفاعلٍ إيجابي إلا بتوافر صور الإقامات، رغم وجود ورقة مطبوعة (PRINT) من الجوازات تثبت أرقام الإقامات وتاريخ صدورها. ربما اعتبر عدم وجود صور للإقامات المفقودة بمصر وكذلك الجوازات تحايلًا من مصري (نصَّاب)! كما يظنون بكل المصريين بالمملكة بل كما يطلقون على كل منهم (مصري نصاب) للحصول على مستخرج جديد للإقامات مع الاحتفاظ بالإقامات القديمة؛ كي يمكن استخدام الإقامات الجديدة في عملية تزوير مربحة! التمست للرجل عذرًا ربما كان على حق فكيف لمقيمٍ ألا يحتفظ بصور لإقامات عائلته!؟

سلَّمت أمري وأمر أولادي البنات اللاتي كُنَّ من نصيبي في هذا التقسيم القدري الغير متوقع؛ لله. فقط ما كان يؤلمني عدم مقدرتي

لأداء دور الأم لثلاثة من البنات بالغُرْبة، كلهن لا يستطعن الاعتماد على أنفسهن حتى في أمور النظافة الشخصية بصفة عامة ونظافة الشعر بصفة خاصة.

كنت أرى أشياء غريبة في شعرهن! كنت أحاول جهدي ما استطعت، مع بعض العقاقير ناهيك عن مشكلة الطعام، فلم يكن أمامي سوى المطعم بجوار البيت الذي لا يقدم سوى الأرز والدجاج المندي حتى خرج لي صوتٌ يشبه صياح الديك وكذلك للبنات أصواتٌ تشبه أصوات الدجاج.

وحين أراد القدر حلًّا للمشكلة.. كان ذلك بمحض الصدفة البحتة كنت أُوَثِّقُ أوراقًا للعمل بالغرفة التجارية ولمحت مكتبًا صغيرًا جدًّا ملحقًا بالغرفة التجارية مكتوب عليه مكتب للخارجية السعودية.. فهمت على الفور أنه مكتب فرعي صغير، وَجَالَ بخاطري أنني لن أجد به أكثر مما وجدت بالمكتب الرئيسي، ولكن الغريق إن أتيحت له قشة تعلق بها وعجب العُجاب أن يتم حل المشكلة وبسرعة فائقة بهذا المكتب الصغير.

وبالفعل رجعت الزوجة والطفلة الرضيعة إلى أحضان الأسرة من جديد وصدق المثل القائل (يوضع سره في أضعف خلقه)

-١٧-

المكافأة!

كانت الأحداث كلها مختلطة، ضغط من كل جانب! ملحمة إنسانية من ناحية العمل ومشاكل الأسرة بالغربة وكان يتوجَّب عليّ حل كل المشاكل بهدوءٍ واتزانٍ وإعمالٍ للعقل بكل صغيرة وكبيرة تواجهنا بالحياة كما علمونا بالهندسة، فكثيرًا ما سمعت هذه الجمة أثناء الدراسة (المهندس يختلف عن غيره من الناس في إحساسه الهندسي والتفكير العلمي المنطقي)

***

استدعاءٌ من رئيس مجلس إدارة الشركة شخصيًّا لإغرائي بمبلغ كبير كمكافأة إن انتهيت من الرسومات التنفيذية المطلوبة للمشروعين في مدةٍ قصيرة جدًّا!

حقيقة لم تكن هذه الأولى من نوعها، أن يتم إغرائي بالمكافآت كي أتخلص من طبيعتي البشرية وأتحول إلى آلة تحارب الزمن وكل قوانين الطبيعة؛ لإنجاز الأعمال في فترة يستحيل أن تنتهي الأعمال بها! وليس أمامك وأنت بحضرة ربِّ العمل، وسبب النعمة إلا إبراز الطاعة مع بعض تحفظات غلبة الوقت عليك دون أي تدخلٍ أو قصدٍ منك، وأنك ستبذل قصار جهدك بدون أي محفزات.

وحكمت الخبرة دائمًا أن أصحاب الأعمال لا يوفون بوعودهم بالعطاء السخي بعد الانتهاء من الأعمال المنوط بها، الكل يمشي بمبدأ

(أنت حبيبي وكفاءة) حتى تنتهي من المطلوب منك، رصد لي السيد مبلغًا لا يتعدى جزءًا من عشرين جزء كان سيحصل عليه أي مكتب استشاري حالَ تكليفه بعمل رسومات تنفيذية لمشروعين متوقفين ونسبة الإنجاز بهما بعد ست سنواتٍ لا تتعدى العشرين بالمائة! والأعجب أنه حين الوفاء بالوعد لم يكن ليحدث إلا بالمطالبة.. وبعد حرج تم صرف ثلث المبلغ الذي قطعه وعدًا على نفسه، وبما أن وعد الحر دين عليه فكأنما وصف نفسه دون أن يشعر بأنه لا يملك من الحرية إلا ثلثها.

لم تنتهِ المكافأة على ذلك بل لها تبعات أخرى عجيبة فلم يتم الاكتفاء بأن تشعر بقطع اللحم حين يتم فرمها بماكينة ذات شفرات حادة، تمثلها عنصر الزمن الذي ظللت تحاربه طيلة مدة تنفيذ المطلوب منك! بل انتظرتك بالخفاء مهمة أخرى لم يتم الإفصاح عنها إلا بعدما تنفست الصعداء وشعرت بلذة النصر وجمال النجاح الذي يجعلك أخف وزنًا حين تمشي على الأرض الثابتة تحت قدميك بعدما أثبتَّ للجميع أنك وضعت بصمة ثقيلة لك بالمكان.

***

بعد شهرين من إنهاء المهمة والانشغال بمشاريع أخرى جديدة، استدعاءٌ جديد بمكتب السيد الفلسطيني مدير العمليات والتشغيل؛ يطلب أن أقوم بتجهيز نفسي وعمل الترتيبات اللازمة لأنزل للكبير من المشروعين؛ كي أقوم بتنفيذ ما قمت بعمل مخططات له! بحجة أنه

لا يوجد من هو أفضل لمهمة التنفيذ، وأن مقاول الباطن ضعيفٌ ولن يفلح في تنفيذ المطلوب منه.

حقيقة.. تلقيتها صدمةً عنيفة؛ فالأمور مستقرة بالرياض العاصمة، أولادي ينعمون بالمدارس والمولات والملاهي والمطاعم الفاخرة، وزوجتي الطبيبة ليس لها عمل سوي العناية بي وبأولادي دون تذمر، وأنا أيضًا أنعم بالعمل بموقع كبير مهندسي الشركة بل مدير قسم الكهرباء بالشركة وإن لم يتم الإعلان عن ذلك بشكل رسمي بعد أن أقيل مدير القسم، عامٌ ونصف بالرياض من الاستقرار والنظام. الشقة أخذتها بأرقى الأحياء وأثثتها بأحسن ما يكون الأثاث، بالصباح أتناول فطوري مع الأولاد ثم أوصلهم للمدرسة بسيارتي التي خصصتها لي الشركة والتي كانت سابقًا لمدير القسم، وبالظهيرة آتي بهم من المدرسة؛ لأتناول الغذاء معهم، وبعد الظهر عودة إلى العمل من جديد، وبنهاية الأسبوع خروج للملاهي والمطاعم والمولات الكبرى. عيشةٌ كريمة مستقرة أصبحت أجمل وأكثر متعة حين انتهيت من أصعب مهمة وكِّلَتْ إليّ بحياتي المهنية وأكبر تحدٍ تلقيته من كبار موظفي الشركات، لم يجد أمامه غيري هذا الفلسطيني الذي بالتأكيد لا يعرف معنى الاستقرار والأمان؛ ليطلب أن أهدم هذه المنظومة وأنتقل إلى موقع عمل بمدينة في أقصى الجنوب ليس بها أي وسائل تصلح أن تقيم حياة !

-١٨-

صدمة

مرة أخرى تجد نفسك أمام رب النعمة ليطلب منك هدم المنظومة المستقرة وتبدأ في بناء منظومة أخرى ببلدٍ فقير بكل وسائل الحياة وليس وسائل الترفيه فقط! أو إنهاء المنظومة بالكامل بإنهاء التعاقد، بالطبع هذه المعاني لا تقال بشكل صريح، لكن مع كثرة التعامل مع أصحاب الشركات الخاصة أصبحت واضحة كالمُسَلَّمات.

وإن كنت من المغامرين أمثالي وفضلت القطاع الخاص من البداية وتغلبت على الأمثال القاتلة التي تحول الشباب إلى مسخ مثل: (إن فاتك الميري اتمرغ في ترابه)

)الحنفية اللي بتنقط أحسن من الدش اللي بيدفئ)؛ فإنك تعلم قوانين اللعبة جيدًا، ويمكنك الحصول على درجة الدكتوراه في علم نفس أصحاب الأعمال.

اخترت الاستمرار في العمل بمدينة شابة في الجنوب لم تنعم بأبسط مظاهر المدنية والتحضر كمرور الكهرباء بها إلا من عقدين من الزمان بأقصى تقدير مقابل زيادة بالراتب وصرف بدل جديد للسكن بدلًا من الذي فقدته بالرياض بسبب القرار الجائر وكذلك إرسال سيارتي إلى هناك، فلن أقودها لمسافة ألفين من الكيلو مترات بعيدًا عن الرياض العاصمة؛ كي أصل إلى مكان المشروع بمدينة (المِخْراه)

ذلك هو اسمها القديم والذي تم تعديله فيما بعد ليصبح أكثر لباقة ولياقة (المِخْواه).

توجَّب عليّ الذهاب أولًا لاستكشاف طبيعة المكان واستئجار شقة. قلبت المخواة رأسًا على عقب كي أحصل على شقة مثل التي اعتدنا السكن بها بالرياض فستكون هي عالمنا الخاص، فالمدن تتشابه حين تغلق المنازل.

وبالفعل كانت أرقى شقة بالمخواة دون مبالغة، كان إيجار شقة الرياض بسبعة وعشرين ألف ريال سنويًّا أما شقة المخواة فكان إيجارها اثنين وعشرون ألفًا فقط بها خمس غرف وصالة كبيرة ومطبخ كبير وثلاثة حمامات.. غرفتان وحمام ببداية الشقة يفصلهما باب عن باقي الشقة، تمثل هاتان الغرفتان مجلسين: أحدهما للرجال والآخر للنساء، وأما الغرف الثلاث المتبقية فأحدهما رئيسية وأخري للأولاد وأما الثالثة فكانت غرفة معيشة لم أجد أهنأ من هذه الشقة للمعيشة بكل الشقق التي أقمت بها، حقيقة استمتعنا بالإقامة بها لمدة عامين كاملين انتقل المشروع خلالهما نقلة كبيرة، من نسبة إنجاز لا تتعدى العشرين بالمائة إلى وصول التركيبات به إلى الخمسة والثمانين بالمائة ولكن للأسف على حساب إصابتي بأمراض العصر المعروفة (الضغط والسكر) بسبب استشاري المشروع !

-١٩-

وَرْطَة!

كانت الآمال معقودة لإنهاء مشكلة المشروع في ستة أشهر أو سنة بأقصى تقدير ثم العودة إلى الرياض، ولكن اتضح لي أن الحماس وحده لا يكفي، بل توجد حسابات أخري عقيمة ولن أخجل أن أقول (عفنة) تؤخرنا وستظل تؤخرنا كعالم ثالث طالما ظلت جاثمة فوق قلوبنا وعقولنا وعاداتنا وتفاهاتنا ونَظرتنا المحدودة التي لا تتعدى الرمال التي تلتصق بأحذيتنا!

فلا يعدو أي موقع هندسي من كونه مسرحًا للقط والفأر (توم وجيري) ليقدما عليه حَلقاتهم اليومية الكوميدية التراجيدية الدموية! كل يوم حلقة بين المقاول والاستشاري أو بمعنى أدق جولة على حلبة المصارعة.

المصريون بالغُربة أكثر الشعوب فتكًا ببعضهم البعض. لم أقابل بحياتي طاقماً للاستشاري مثل هؤلاء، جميعهم كبيرو السِّن، وانقطع أملهم في تجارب جديدة بأماكن جديدة ولا يريدون الإقلاع عن المشروع ولا يريدون له أن يتحرك، يخططون ويبدعون في كيفية عدم تقدم الأعمال بشكل مبالغ فيه، بالطبع لم أعلم بذلك خلال الشهر الأول بل علمت ما تنطوي عليه نواياهم بعد ذلك كبيرهم تنطبق عليه هذه الأبيات تمامًا:

وإذا الصديق رأيته متملقًا

فهو العدو وحقه يتجنبُ

يلقاك يحلف أنه بك واثقٌ

ويروغ منك كما يروغ الثعلبُ !

كأن هذا هو دأبه حقًّا يلقاني بالابتسامات وعلامات الرضا، نتناقش بهدوء ويقتنع بكلماتي، مبهور دائماً بحماسي، طلباته الطبيعية مستوفاة من مخططات واعتمادات، لا تشعر أبدًا أنه يضمر بداخله هذا المعنى الخبيث الذي أشرت إليه آنفًا.

بعد شهرين من التواجد بالموقع وحين بدأت علامات وإشارات البداية الحقيقية للتنفيذ، وجدته يتودد إليّ بأسلوبٍ أبوي حميم، وبلحظة بشاشة منفردين وجدته يفصح لي علانية بنيته.. قائلاً:

- يا أخي إنت يعني متحمس قوي للشغل وعاوز تخلص المشروع بسرعة! يعني صاحب الشغل هيعلق لك النياشين يعني؟ واللا لما توفر له كام مليون هيعطيك مكافأة؟ واللا لما المشروع يخلص هتروح فين يعني؟، إنت قاعد ومبسوط ومرتبك شغال.

كلماتٌ ثقيلة مفاجئة وقاتلة، لم أجد لها جوابًا إلا الرد الطبيعي والذي يخبره عني بصدق، دون خجلٍ من شيبته.. ولِمَ الخجل وهو نفسه لم يخجل مني ولا من شيبته ولا من ربه! قلت له بابتسامة طبعت على ملامح وجهٍ أصابه العَجَبْ:

- الأرزاق بيد الله يا باش مهندس.

أما الآخر صاحب التخصص أحيانًا كانت تنتابه بعض ومضات الخجل، فكان يعتمد بعض الرسومات والمواد بعد أن يفيض الكيل ولا يجوز أن يرفض بعد ذلك وبكل اعتماداته كان يكتب جملة شهيرة تعفيه من أي مسئولية ولو أدبية، كان يكتب.. (على مسئولية المقاول!)، رغم أن العُرف ساد على ذلك حتى وإن أخطأ الاستشاري باعتماداته ولكنه كان يكتبها ويكتب حولها بعض الكلمات التي تحمل معانٍ للإثبات والنفي في آن واحد بحيث يستطيع التملص وقت اللزوم. علمت بعد ذلك أنه هو الآخر لديه ابنٌ في الصف الأول الثانوي ولا يوجد خيار أمامه إلا أن يتم دراسته الثانوية بالمدارس السعودية؛ كي يستطيع الحصول على درجات تؤهله للالتحاق بكلية مرموقة بمصر، ففرصة ذلك بمصر صعبة جدًّا، فكيف له يريد للمشروع أن ينتهي!؟ لم يكن أمامي بهذه الورطة الكبيرة إلا أن أقوم بالأعمال على طريقة الحاوي والسير على الحبل بين المرتفعات، حاولت جهدي ما استطعت بكل الحيل والطرق كي تسير الأمور بشكلها الطبيعي لكن لم أجد مهربًا أبدًا من إلغاء دور الاستشاري بالمشروع، وقمت بالتنفيذ رغمًا عن كل العراقيل التي وضعوها أمامي، من شكايات وخطابات. العجيب من أمر مهندس التخصص أنه كان يرفض دائمًا مرحلة التركيبات التي نحن بصددها ولا يعتمدها إلا إن تجاوزناها للمرحلة التالية وبالمثل لم يكن ليعتمد هذه التالية إلا إن بدأنا في المرحلة التي تليها، مما يجعلك تشعر أن طاقم الاستشاري متواجد بالموقع لتعطيلك فقط.

هل يوجد بتاريخ العمل الهندسي، استشاري يرفض طلبات الاستفسار عن معلومات!؟ حقيقة منصب الاستشاري وسلطته بالمواقع تحتاج إلى كثير من التدقيق للتأكد من إمكانياته أولًا، فليس كل كبير بالسن خبير في مهنته، وكذلك مراقبته للتأكد من أدائه ثانيًا.

جرت الأمور كما سبقت بوصفها، وخلال عامين كاملين انتقل المشروع من نسبة إنجاز لا تتعدى العشرين بالمائة إلى ما يزيد على خمسة وثمانين بالمائة من التركيبات الفعلية وحين بلغت القلوب الحناجر أتت لجنة من الجهة المالكة واعتمدت التركيبات، وقررت بتقرير مكتوب أن العمل بكفاءة لا تقل عن خمسة وتسعين بالمائة، وحينها قام الاستشاري بعد كل هذا العذاب الذي لاقيته على أيديهم بإرجاع الفضل إلى نفسه! رغم أن المشروع كان ميتًا طوال ست سنوات خلت أيضًا على أيديهم وبسبب مآربهم.

***

ما كان يؤلمني أكثر بهذه المدينة التي تشبه قرى مصر المتواضعة؛ هو طلب ابنتي الصغرى الذهاب إلى مطعم الثريا التركي الذي كنا نزوره باستمرار بالرياض لتناول وجبة فاخرة يوم الخميس، ومن بعده الذهاب إلى أحد محلات الآيس كريم الفرنسي الفاخر .... Le notre paris –

– مش هنروح (لي نوتر باغي) بقى يا بابا!؟

– إن شاء الله يا حبيبتي، لما نخلَّص لي نوتر المخواة الأول !

-٢٠-

ترفيه

تعلمت أن أتلمس رحمة الله دائمًا وسط كل الصعوبات؛ فلم تكن الحياة سيئة جدًّا بعيدًا عن الرياض، فقد كان المُقام على مسافة ستين كيلو مترًا من شاطئ مدينة المظيلف على ساحل البحر الأحمر، كذلك كنا نبعد مائة كيلو مترًا عن شاطئ مدينة القُنفذة. وكذلك الحال بالنسبة لمدينة الباحة المسافة لا تزيد عن خمسة وأربعين كيلو مترًا فقط، لكنها كانت عبارة عن عقبة خلال مرتفعات جبال تهامة.

درجة الحرارة بالمخواة مرتفعة طوال العام تتخطى حاجز الخمسين درجة مئوية بفصل الصيف!؛ لذلك طوال الصيف كان الترفيه بنهاية الأسبوع هو الاستمتاع بمدينة الباحة التي ترتفع عن منسوب سطح البحر زيادة عن ألفي متر، مما يجعل درجة الحرارة بها لطيفة جدًّا، ولا يوجد الشعور بنقص الأوكسجين نظرًا لوجود نباتات كثيفة بالمدينة وخاصة بغابة أو حديقة الرَّغدان التي تحتوي علىٍ أشجار عتيقة ونادرة وتعتبر محمية طبيعية، قد تجد القرود تتنزه بها بجوار الناس، يوجد بها مطاعم ومتنزهات عامة مجانية فائقة الجمال والروعة، يوجد بها مسرحٌ للأطفال، وأجمل ما بهذه الحديقة كانت حفلات الشواء التي كانت تُقام مع الأصدقاء وعائلاتهم، جو عائلي حميم، الرجال بحلقة والنساء كذلك يستمتعن بحفلات الكلام التي هي أشهى لديهن من رائحة الشواء! كذلك ينعم الأطفال بالانطلاق وسط هذه الجنة الخضراء.

***

الطريق نفسه خلال جبال تُهامة بقدر خطورته بقدر متعة البراح ورؤية عظمة صُنع الله، والمتعة كلها كانت برؤية محفل القرود وخاصة الصغار حين التعلق بأمهاتهم أما الشتاء فكان شاطئ البحر هو الأجمل. الشاطئ هناك يختلف تمامًا عن شواطئنا، فلا يوجد اهتمام كبير بالشواطئ مثلنا، ولا تجد أحدًا بالبحر إلا بعد انكسار شعاع الشمس وإلا احترق خلال دقائق معدودة، فكان الصغار ينعمون باللعب بالمياه والرمال وكنت أستمتع بصيد الأسماك، صحيح أني لم أحصل بهذا الصيد إلا على سُميكات قليلة لكن التجربة وحدها لها متعتها، بل مجرد الخروج عن المألوف في حد ذاته متعة كبيرة.

***

هذه المناطق مثل باقي مناطق المملكة يوجد مجرى للسيول، فهذا هو الحال المطر! فرغم عدم وجود أنهار وتعتبر المملكة صحراء؛ إلا أن ماء المطر يعوض ذلك بل ويزيد. وحتى قريبًا جدًّا كادت ثاني أكبر مدينة بالمملكة تغرق بسبب مياه الأمطار وهي مدينة جدّة، بسبب عدم وجود شبكة لصرف مياه الأمطار إلا قريبًا جدًّا؛ لذلك يوجد تتبع للانتقال الطبيعي للمياه من المرتفعات إلى المنخفضات حتى يتم تجميع المياه بمكان واحد يشبه التُّرعة بمصر، ثم يتم استعمال هذه المياه بعد ذلك في الزراعة وخلافه.

بعام ٢٠١٠ كنت سأموت بجدة بالفعل بسبب السيول؛ حيث

تعطلت السيارات ووصلت المياه للصدور، لولا أن أدركتنا رحمة الله. وكذلك بالمخواة لم تتركني مياه السيل لشأني.. كان يوجد تجمع كبير للمياه ولا مفر من اجتيازه، حيث كانت تجتازه السيارات المرتفعة بلا مشاكل، وكذلك كانت تجتازه السيارات المنخفضة إن تم المرور بسرعة ولكن للأسف رفضت المياه أن تجيز مروري عليها ودخلت المياه إلى فلتر الهواء للسيارة الأخيرة لي بهذه الرحلة (الأوبترا)، وتعطلت تمامًا بمنتصف المياه ولم يكن أمامي سوى النزول ودفع السيارة بمساعدة بعض الفنيين حتى عبرت بها المياه، بعد أن أصبحت السيارة بيتًا للمياه وكذلك ملابسنا! وكانت هذه الأخيرة الأوفر كرمًا معي بخلاف سياراتي الثلاث السابقة. تُرى ماذا سيكون الحال مع الخامسة!؟

